غير مرخصة للطباعة

المحـور الثامـن

التَّاريخ والشخصيَّات الإسلاميَّة

١٣٦

الإمام الغزالي

بين مادحيه وناقديه

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة تجريبية

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كُلِّ مائة سنة مَنْ يُجدِّد لها دِينها**». رواه أبو داود والطبراني والحاكم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

(أمَّا بعد)

فهذه الصحائف الَّتي بين يَدَيْك ـ أخي القارئ ـ تُلقي شُعَاعًا من ضوء على أحد عمالقة الفكر والتجديد في تراثنا الإسلامي، إنَّها عبقريَّة فذَّة، أنبتتها تربة الحضارة الإسلاميَّة الخصبة، الَّتي طالما هيَّأت لأبناء الفقراء والكادحين أنْ يرتقوا شوامخ القمم بمواهبهم وكفاحهم، وأنْ يفرضوا أنفسهم على الزمن، ويُصغي لهم سَمْعُ التاريخ.

فمن كان يظنُّ أنَّ ذلك الصبيَّ الَّذي كان يكسب أبوه عَيْشه من مِغْزله، والَّذي لم يدعْ له من المال ما يكفيه مدة الصِّبا، حتَّى اضطرَّ أنْ يدخل هو وشقيقه إحدى المدارس الَّتي تتكفَّل بإيواء طلابها وإطعامهم والنفقة عليهم، من كان يظنُّ أنَّ ذلك الغلام سيصبح يومًا حُجَّة الإسلام، وعَلَم الأعلام، وأنَّ الشَّرق والغرب سينتفعان به ويُخلِّدان أَثَرَه؟

QaradawiBooks.com

إنَّه الغزالي[١]، الَّذي أثَّر في الفكر الإسلامي، وفي الحياة الإسلاميَّة، تأثيرًا منقطع النظير، من خلال عطائه الفِكْـري، وعطائه الرُّوحي، ومن خلال قصَّة كفاحه في سـبيل الوصول إلى الحقيقة واليقين، والسـعادة الرُّوحيَّة، الَّتي هي عنده غاية الغايات.

أجل إنَّه الغزالي، الرجل الَّذي ملأ الدُّنيا وشـغل الناس، في حياته وبعـد وفاتـه، واختلف فيـه السـابقون، كمـا اختلف فيـه اللاحقون والمعاصرون.

فمن مُبالغٍ في الإعجاب به، والثناء عليه، ومن مُسْرِف في الاتِّهام له، والتحامل عليه.

ومن معتدلٍ بين هؤلاء وهؤلاء، يعطي الرجل حقَّه، ويمدحه بما هو أهلُه، وينقده فيما يرى أنَّه قصَّر أو أخطأ فيه، والعصمة لمن عصمه الله.

وجدنا من السابقين من يُعَظِّم كُتُبَه، حتَّى قال من قال: كاد «الإحياء» يكون قرآنًا!

ووجدنا في مُقابِله من يقول: إنَّه إحياءٌ لدِينه هو، وليس إحياءً لدين المسلمين!

فلا عجب، إنْ رأينا من تقرَّب إلى الله بإحراق كتبه، ومن تقرَّب إلى الله بنشرها وتعميمها!

ولا غـرو، فالرجل خاصَم فئـاتٍ كثيرة، ألَّبها جميعًـا ضدَّه، وهاج عداوتَها له.

---

(١) الغزَّالي ـ بتشديد الزاي ـ هو المشهور، فهو منسوب إلى حرفة «الغزل» وهي مهنة أبيه، على عادة أهل خراسـان، حيث يقولون: العطَّاري والخبَّازي نسـبة إلى العطَّار والخبَّاز. وقيل: بتخفيف الزاي، نسبة إلى «غَزَالة» قرية من قرى طوس.

QaradawiBooks.com

فقد هاجم الفلاسفة، وفضح الباطنيَّة، وندَّد بالحشْويَّة، وعاب المقلِّدين، وانتقد المتكلِّمين، ولام الفقهاء، وحمل على العلماء الَّذين يلتمسون الدُّنيا بالدِّين، وسمَّاهم «علماء الدنيا»، كما حمل على علماء «الظاهر» من الحرفيِّين الَّذين حجبهم القَشْرُ عن اللُّباب، وكشف اللِّثام عن كثير من ظاهر التديُّن المغشوش لدى طوائف شتَّى من المجتمع.

كما كانت عنده ـ باعتباره بشرًا غير معصوم ـ نقاطُ ضعف، أخذها عليه منتقدوه، لعلَّ أبرزَها قِلَّةُ محصوله في علم الحديث، وهو ما اعترف به، وتسليمُه الكامل بمناهج الصوفيَّة وأفكارهم، دون أنْ يحاكمها إلى قانون الفقه الَّذي برع فيه وفي أصوله.

وقديمًا قالوا: من ألَّف فقد استَهْدَف[1]، فكيف برجلٍ كالغزاليِّ، كان غزيرَ التأليف، ثَرَّ العطاء، خصب الإنتاج، مُتنوِّع القُدُرات، مُتعدِّد المجالات، مع حُرِّيَّة في التفكير، وجراءة في التعبير؟

ثمَّ هو يتعرَّض لتحقيق مسائل شائكة، والبحث في قضايا عويصة، هي مَزِلَّة أقدام، ومَضِلَّة أفهام، اعتركت فيها العقول، أو اضطربت فيها النقول، واختصمت فيها الفرق والمذاهب، وتباينت فيها الاتِّجاهات والمشارب، وغرق في بحرها الأكثرون، وما نجا منه إلَّا الأقلُّون، و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

ولا غرو أنْ تباينت فيه الأقوال، ما بين مُعَظِّم له كلَّ التعظيم، ومهاجِم له أعنف الهجوم، شأن كثيرٍ من العظماء في التاريخ، هذا عن المتقدِّمين.

(١) استهدف: أي صار هدفًا لغيره. فالسين والتاء هنا للصيرورة، والفعل لازم، وليس متعديًا، كما يستعمله كثيرون في عصرنا، يقولون: استهدف كذا، يعنون: قصد إليه، وهو خطأ شائع.

QaradawiBooks.com

وأمَّا المعاصرون، فهم مختلفون فيه أيضًا، تبعًا للمدارس الدينيَّة والتيارات الفِكْريَّة الَّتي ينتمون إليها.

فالمدرسة الأشعريَّة التقليديَّة الَّتي ينتمي إليها معظم الأقطار الإسلاميَّة تُعَظِّمه غاية التعظيم.

وكذلك المدرسة الصوفيَّة بمختلف طُرقها تضعه في مرتبة الصِّدِّيقين.

وأمَّا المدرسة السَّلَفِيَّة الَّتي تخاصم الأشعريَّة، وتعادي الصوفيَّة، فلها موقف آخر من الغزالي، فمنهم من يعترف بفضله، وينقده برفقٍ واعتدال، ومنهم من يرسل عليه وعلى كتبه كُلُّها شُواظًا من نار.

وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ، فإنَّما يدلُّ على عظمة الرجل، وإبداعه، وخصوبة إنتاجه، وسعة آفاقه، وتنوُّع عطائه، شأن كثير من العظماء الَّذين يجنح كثير من النَّاس فيهم، إمَّا إلى إفراطٍ، وإمَّا إلى تفريطٍ.

ورضي الله عن عليٍّ بن أبي طالب الَّذي قال عن نفسه: هلك فيَّ رجلان: مُحِبٌّ مُغَالٍ، ومُبْغِضٌ ضالٌّ[1]!

وعلى كلِّ حال، فإنَّنا نجد المُعجَبِين به، والمُثنِين عليه، أكثرَ عددًا وأعزَّ نفرًا من الطاعنين عليه.

قال فيه الإمام محمَّد مصطفى المراغي شيخ الأزهر المعروف: إنَّه جملة رجال في رجلٍ واحد[2]!

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٧٦)، وقال مُخرِّجوه: إسناده ضعيف. وحسن إسناده أحمد شاكر في تعليقه على المسند. وابن أبي شيبة في الفضائل (٣٢٧٩٧) بلفظ: «يَهْلِك فيَّ رجلان: محبٌّ مُفْرِط يُقَرِّظُني بما ليس فيَّ، ومُبْغِضٌ يحمله شنآني على أنْ يَبْهَتَني».

(٢) انظر: مقدمة الشيخ المراغي لكتاب أحمد فريد الرفاعي عن الغزالي صـ ٩، نشر عيسى الحلبي، مصر.

QaradawiBooks.com

وذكره الإمام المودودي ضمن الأعلام المعدودين الَّذين كان لهم دور بارز في إحياء الدِّين وتجديده، وعـدَّد مجالات تجديده، ونوَّه بأثره في كلٍّ منها[١].

ويقول العلَّامة أبو الحسن النَّدْوي: الغزالي من نوابغ الإسلام وعقوله الكبيرة، ومن كبار قادة الفكر الإسـلامي، ورجال الإصلاح والتجديد، الَّذين لهم فضلٌ كبيرٌ في بعث الرُّوح الدينيَّة، وإيقاظ الفكر الإسـلامي، ومهما قيل فيه وقيل عنه، فإنَّ إخلاصه أسمى من أنْ يُشَكَّ فيه[٢].

ورفعه شـيخُنا الدكتور عبد الحليم محمود إلى الـذِّروة في العطاء الفِكْري وفي الارتقاء الرُّوحي معًا[٣].

ويراه العلَّامة أبو زهرة: في أصول الفقه فليسـوفًا بين الفقهاء، وفي فروعه مُحَقِّقًا يتَّبع الدليل، ولا يتَّبع الأشخاص، وهو في الفقه أبين أثرًا منه في الكلام والفلسفة[٤].

أمَّا الأسـتاذ عبَّاس العقَّـاد، فيعتبره ـ قبل أنْ يكـون فقيهًا ومتكلِّمًا وصوفيًّا ـ الفيلسـوف الَّذي اكتملت له كلُّ أدوات الفلسـفة، من القدرة على التجرُّد، والقدرة على التجريد[٥].

(١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه للمودودي صـ ٧٣ وما بعدها، نشر دار الفكر الحديث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام صـ ٢٤٧، نشر دار القلم، الكويت، ط ٤، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٣) راجع التفكير الفلسفي في الإسـلام للدكتور عبد الحليم محمود (٢٨/٢، ٢٩)، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٦٤م.

(٤) الغزالي الفقيه لمحمد أبو زهرة ورقة مقدمة لمهرجان الغزالي في الذكرى المئوية التاسـعة لميلاده صـ ٥٨٥. تحرير د. زكي نجيب محمود، ١٩٦١م، نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الجمهورية العربية المتحدة.

(٥) محاضرة فلسفة الغزالي صـ ٦، نشر مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

ويقول عنه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: إنَّه مؤسِّس علم النفس الإسلامي[١].

ويصفه الدكتور زكي نجيب محمود بأنَّه «العملاق العظيم»، ويُلَخِّص موقفَه بعد فترة الشكِّ في هذه العبارة: أنا أريدُ، إذنْ أنا إنسان[٢].

والدكتور سليمان دنيا ينعتُه بأنَّه: الشخصيَّة الفذَّة الَّتي حيَّرت الكاتبين والمحلِّلين[٣].

والدكتور أبو ريدة يقول عنه: من أكبر مفكري الإسلام، ولعلَّه أقربُهم إلى الابتكار، وهو بطل من أبطال الإسلام الخالدين، الَّذين ناضلوا عنه[٤].

والدكتور أبو ريَّان يرى أنَّه الشخصيَّة الَّتي هيَّأتها الأقدار للقيام بدور المواجهة الجذريَّة والحاسمة لتآمر الباطنيَّة، ودعاوي الفلاسفة وأصحاب المناهج العقليَّة المُعارِضة للعقيدة[٥].

هذا إلى جوار ما قاله عنه الأجانب والمستشرقون.

ومهما يكن من الخلاف في منزلة الغزالي وأثره في الأمة الإسلاميَّة بالإيجاب أو بالسلب، فإنَّ التاريخ يذكر أنَّ جمهور المسلمين قد عرفوه بأنَّه «حُجَّة الإسلام» و«مُجَدِّد القرن الخامس» و«محيي علوم الدِّين».

---

(١) راجع: الغزالي مؤسس علم النفس الإسلامي، نشر دار الأفاق، بيروت، ١٩٨٣م.

(٢) انظر: رؤية إسلامية د. زكي نجيب محمود صـ ١٢٨، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٣) انظر: الحقيقة في نظر الغزالي لسليمان دنيا صـ ٧، ٨، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٤.

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور صـ ٣١٦، هامش (١)،، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، نشر دار النهضة العربية، بيروت، ط ٥، ١٩٨١م.

(٥) انظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور محمد علي أبو ريان صـ ٤٦٥، ٤٦٦، نشر دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ٤، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

وإنَّ المعاصرين مهمـــا اختلفوا في تقويمه، فهـــو عندهم جميعًا في الذِّروة من أعلام الفكر في الإســـلام، وأعلام الفكر في العالم، وأعلام الباحثين عن الحقِّ.

وما كُتِبَ عنه في الشرق والغرب بالعربيَّة وغيرها من المسلمين وغير المسلمين شيءٌ يَصْعُب حصرُه.

وستظلُّ الأقلام تكتب، والمكاتب تنشر، والعالَم يقرأ عن الغزالي.

ولنْ تتوقف النـــدوات ولا المؤتمرات ولا المهرجانـــات الَّتي تقام لإحياء ذكرى الغزالي.

رحم الله إمامَنا الغزالـــي، وجزاه عن دِينه وأُمَّته خيـــرًا، وآجره على ما تحرَّى فيه الحقَّ فأخطأه. آمين.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله، وعلى آله وصحبه ومَن اتَّبع هداه.

(أمَّا بعد)

فلم يكن في نِيَّتي ـ في هذه المرحلة على الأقلِّ ـ أنْ أكتب عن الإمام أبي حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، لا لشيءٍ، إلَّا لأنَّ الرجل غنيٌّ بما كُتب عنه في شتَّى الاختصاصات، وذلك لتعدُّد جوانب النبوغ في شخصيَّته الفارعة، وتنوُّع المواهب والقدرات الَّتي آتاه الله إيَّاها، وسَعة الآفاق والمجالات الَّتي تناولها علمًا وعملًا ودعوة تعليمًا.

ومن عادتي ألَّا أكتب في الموضوعات الَّتي أُشْبِعَت بحثًا، إلَّا أنْ يكون عندي شيءٌ يقال، غير ما قاله من سبقني، تكميلًا لنقصٍ، أو تصحيحًا لمفهومٍ، أو توضيحًا لغامضٍ، أو تفصيلًا لمُجْمَلٍ، أو جمعًا لمُتَفَرِّقٍ، أو تقريبًا لبعيدٍ، أو نحو ذلك ممَّا تُصَنَّف له المصنَّفات. وإلا كان التصنيف تكرارًا محضًا، لا يضيف شيئًا جديدًا إلى دُنيا العلم والفكرة، ولا يستحقُّ الورق الَّذي يطبع به.

QaradawiBooks.com

وليس من شيمتي ـ ولله الحمد على ذلك ـ أنْ أُكَرِّر غيري ولا نَفْسِي فيما أكتب.

من هنا لم أتَّجه إلى الكتابة عن إمامنا الغزالي، رغم تعرُّفي عليه منذ عهدٍ مُبَكِّر من حياتي، عن طريق كتابَيْن له هما: «إحياء علوم الدِّين» و«منهاج العابدين».

ولكنَّ الله ﷻ إذا قدَّر أمرًا هيَّأ له أسبابه، فقد أرسلت المنظمة الإسلاميَّة للتربية والثقافة والعلوم (إيسسكو) كتابًا إلى الجامعات في البلاد الإسلاميَّة، تحثُّها فيه على الاحتفال بمرور تسعة قرون هجريَّة على وفاة الإمام الغزالي سنة (٥٠٥هـ).

وكانت جامعة قطر ممَّن استجاب لهذا النداء الكريم، واقترحت كُلِّيَّة الشَّريعة أنْ تعقد بعض الندوات، وتلقي بعض المحاضرات، ويصدر كتاب تذكاري عن الغزالي بهذه المناسبة.

وألَّفت الجامعة لجنة لإعداد هذا الكتاب، وطلبتُ من عددٍ من الأساتذة تناول جوانب من حياة الغزالي، كلٌّ في اختصاصه.

وطلبت مِنِّي أنْ أكتب مُقدّمة مناسبة للكتاب كلِّه، تحمل نظرة عامَّة لعبقريَّة الغزالي، وشخصيَّته الرَّحْبة.

وبدأتُ أكتب هذه المقدّمة، محاولًا أنْ أجيب فيها عن سؤالٍ أساسيٍّ، هو: لماذا سمَّى المسلمون الغزالي «حُجَّة الإسلام»؟ ولماذا أجمعوا ـ كما ذكر السُّيُوطي ـ على اعتباره «مُجَدِّد المائة الخامسة»[1]؟ وما الدور المهم الَّذي قام به حتَّى تبوَّأ هذه المكانة في الثقافة الإسلاميَّة، وفي الحياة الإسلاميَّة؟

(١) في منظومته المسمَّاة تحفة المهتدين بأسماء المُجَدِّدين.

QaradawiBooks.com

كان في تقديري أنْ أكتب في ذلك نحو عشْر صفحات، أو بضعَ عشْرة صفحة على الأكثر.

فلما شرعت أكتبُ إذا بالموضوع يتَّسع أمامي، وإذا الغزاليُّ يفرض نفسه عليَّ بقوَّة، وكأنَّه كان يُعاتبني من عالَم الرُّوح: كيف أكتب عنه صفحاتٍ معدودة، وأنا الَّذي تتلمذتُ عليه، وغرفتُ من بحره، منذ عهد الصِّبا؟!

لهذا تركت القلم يكتب ما يسَّر الله له، وانتقل الأمر من مجرَّد مقدّمة للكتاب التذكاري، إلى موضوعٍ كاملٍ يُستفتح به الكتاب، بل إنِّي وجدت البحث قد طال بأكثر ممَّا ينبغي أنْ يُنشر عن موضوع في كتاب مشترك، فأخَّرت جزءًا منه، ونشرته في «حوليَّة كُلِّيَّة الشَّريعة».

والآن أضمُّ هذا وذاك لأجعل منهما كتابًا عن الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبرغم أنَّني تتلمذت أوَّل ما تتلمذت على الإمام الغزالي، واستفدتُ من علمه، ونهلتُ من مَعينه، فقد تعلمت منه أيضًا أنَّ الرجال يُعرفون بالحقِّ، وليس الحقُّ يُعرف بالرجال، وأنَّ كلَّ أحدٍ يؤخذ منه ويردُّ عليه، وليس في العلم معصومٌ بعد رسول الله ﷺ.

فلا غرو أنْ نناقشه أو نُخالفه في بعض القضايا، كما يناقش التلميذُ أستاذَه ويخالفه، وكما خالف هو شيوخه وأئمَّته واستدرك عليهم، محتفظين له بما ينبغي من إجلالٍ وتقديرٍ يليق بمنزلته في الفكر، وإمامته في الدِّين، معتقدين أنَّه كان مخلصًا في طلب الحقِّ، وفي ابتغاء رضوان الله، وإنْ أخطأ في بعض الأحيان.

ولقد أزعجني في هذا المقام صِنْفان متقابلان:

١ ـ صنف يُقَدِّس أبا حامد الغزالي، ويرفعه إلى مكانه تكاد تُشبه العصمة، ولا يقبل أنْ يُنقد في فكرة، أو يُخطَّأ في قولٍ، أو يُلام في

QaradawiBooks.com

سـلوكٍ، بعد أنْ ثبتت له الإمامة والولاية، وعرفه الخـاصُّ والعامُّ بأنَّه «حُجَّة الإسلام»!

ونسـي هؤلاء أنَّ الغزالي بشـر يصيب ويخطئ، ووقوع الخطأ منه لا يقدح في إمامته ولا ولايتـه، ولا ينقص من قدره في العلم أو الدين، وهو معذور فيما أخطأ فيه، بل مأجور إنْ شـاء الله؛ لأنَّه اجتهد وتحرَّى ما استطاع. وكلُّ عالِم مسلم اجتهد في الوصول إلى الحقِّ لم يُحرَم من الأجر، سواء كان ذلك في المسائل العِلميَّة الفروعيَّة، أم المسائل النظريَّة الأصوليَّة، كما قرَّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢ ـ والصِّنْف الآخـر، يتحامل على الغزالـي، ويتطاول على مقامه، ولا يعترف بما قدم للعلم والفكر والدين، ويكاد يجرِّده من كل فضيلة، فمنهم من يحمِّله تبعة انتشار التصوُّف المنحرف، وثانٍ يجعل في رقبته ذيوعَ الأحاديث الموضوعة والضعيفة، وآخر يُحَمِّله مسـؤوليَّة التخلُّف الحضاري للأُمَّة الإسـلاميَّة كلِّها! ومنهم من يجعل لـه وَجْهَيْن: وجهًا للخاصَّة ووجهًا للعامَّة.

والإنصاف يقتضينا أنْ نقوِّم الرجل بمجموع عطائه، ومجموع حسناته ومزاياه، وما أكثرها!

ولا يليق بنا أنْ نُهدر فضائله الجمَّة، وعطـاءه الضخم، لأمورٍ كثيرًا ما يختلف النَّاس في تقديرها وتقويمها، حتَّى ما اعتُبر خطأً صريحًا منها، لا يجعلنا ننسى فضل أبي حامدٍ وقدره.

وعيبُنا في كثيرٍ من قضايانا ـ فكريَّة أو عمليَّة ـ الانقسـام بين طرفي الإفراط والتفريط.

QaradawiBooks.com

والمنهج السليم هو المنهج الوسط، منهج العدل والاعتدال، في النظر إلى الأشياء والمواقف والأشخاص والأعمال.

وهو ما حاولت أنْ أسلكه في دراستي هذه لشخصيَّة هذا العملاق، الَّذي ملأ الدنيا، وشغل الناس.

فعسى أنْ يكون في هذه الصحائف ما يفيد الدارسين، ويلقي شعاعًا من ضوءٍ على هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل والجهاد الرُّوحي والعملي والبحث عن الحقِّ واليقين.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعْنا بما علَّمتنا، وزِدْنا علمًا. ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

يوسف القرضاوي

الدوحة في ٩ ربيع الآخر سنة ١٤٠٨هـ
١٩٨٧/١١/٣٠م

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الغزالي حُجَّة الإسلام

الغزالي: محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الطوسي، المكنَّى بأبي حامد، والملقَّب بزَيْن الدين، المولود سنة (٤٥٠هـ)، والمتوفَّى سنة (٥٠٥هـ)، اسمٌ رُزِق صاحبه من الشهرة والذيوع لدى الخواصِّ والعوامِّ، وأثَّر في الحياة العلميَّة والعمليَّة، ما لم يُتَح لأحد من العلماء والمفكرين قبله أو بعده فيما نعلم.

وهو بلا ريب أحد أعلام الفكر الإسلامي، والفكر الإنساني بوجهٍ عامٍّ، كما أنَّه أحد العباقرة الَّذين تعدَّدت جوانب نبوغهم وعطائهم، الجامعين للمعرفة الموسوعيَّة الَّتي شملت العلوم الشرعيَّة في عصره ـ إذا استثنينا علم الحديث الَّذي اعترف الغزالي أنَّ بضاعته فيه مُزجاة ـ فقد شملت معارفه الفقه والأصول والكلام والمنطق والفلسفة والتصوُّف والأخلاق وغيرها، وصنَّف في كل منها تصانيف تشهد له بالعمق والأصالة والتفوُّق وطول الباع.

وهو من ناحية أخرى أحد أقطاب التصوُّف والمجاهدة الرُّوحيَّة، ورجال التربية والدعوة إلى الله تعالى.

فهو رجلُ علمٍ وعمل، ودعوةٍ وإصلاح، وهو أحد «الربانيِّين» الَّذين عَلِموا وعملوا وعلَّموا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والغزالي مثــلُ كثير من العظمــاء الَّذين يُبرزهم القــدر، فيحرِّكون ســواكن المجتمعات، بما يُحدثون فيها من تغيير في الفكر أو السلوك، في العقيــدة أو العمل، ويتركــون «بصماتهم» على حياتهــا المعنويَّة أو المادِّيَّة، الثقافيَّة أو الاجتماعيَّة أو السياسيَّة.

ومثل هــؤلاء العظماء يختلف النَّــاس في تقويمهــم اختلافًا كبيرًا، فمنهم من يعلو بهــم إلى قمَّة القِمَــم، ومنهم من يهــوي بهم إلى قاع الحضيض.

وهكذا رأينا موقف النَّاس من الغزالي، فجمهور المسلمين إلى اليوم يرفعونه مكانًا عليًّا، في مجالي العلم والعمل، وحَسْــبُنا أنَّه اختصَّ دون سائر العلماء والمفكِّرين بلقب «حُجَّة الإسلام»، كما أنَّهم اعتبروه «مُجَدِّد القرن الخامس الهجري».

قال فيه شيخُه إمام الحرمين: «الغزالي بَحْرٌ مُغْدِق».

وقال فيه تلميــذه الإمام محمَّد بن يحيــى: «الغزاليُّ هو الشــافعيُّ الثاني».

وقال معاصره أبو الحسن عبد الغافر الفارسي: «الغزالي حُجَّة الإسلام والمســلمين، إمام أئمَّة الدِّين، من لم ترَ العيون مثله لسانًا وبيانًا، ونطقًا وخاطرًا، وذكاءً وطبعًا».

وقال ابن النجَّار: «إمــام الفقهاء على الإطــلاق، وربَّاني هذه الأُمَّة باتِّفاق، ومجتهد زمانه، وعينُ وقتِه وأوانه».

كما أنَّه في نظرهم أحد أولياء الله وصِدِّيقي الأُمَّة، وهذا ما شهد له به كبار الصوفيَّة مثل أبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي وغيرهما.

QaradawiBooks.com

قال المرسي: «أشهد له بالصِّدِّيقية العظمى»[١].

نقل ذلك كله العلَّامة التاج ابن السُّبْكي في ترجمته في «طبقات الشَّافعيَّة» الَّتي استهلها بقوله عن الغزالي: «حُجَّة الإسلام، ومَحجَّة الدين، الَّتي يُتوَصَّل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرَّز في المنقول منها والمفهوم»[٢].

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»: «برع في علومٍ كثيرة، وله مُصَنَّفات في فنونٍ مُتعَدِّدة، فكان من أذكياء العالم في كلِّ ما يتكلَّم فيه، وساد في شبيبته، حتَّى أنه درَّس بـ «النِّظَاميَّة» ببغداد وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء، وكان ممَّن حضره أبو الخطَّاب، وابن عَقِيل، وهما من رؤوس الحنابلة، فتعجَّبوا من فصاحته واطِّلاعه.

قال ابن الجوزي: وكتبوا كلامه في مُصَنَّفاتهم»[٣].

وقال ابن العماد الحنبلي في «الشذرات»: «الإمام زَيْن الدِّين، حُجَّة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنَّف التصانيف، مع التصوُّن والذكاء المُفرِط والاستبحار في العلم، وبالجملة ما رأى الرجلُ مثلَ نفسه»[٤].

---

(١) راجع هذه الأقوال في ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٩١/٦ ـ ٢٥٨)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، نشر دار هجر، ط٢، ١٤١٣هـ.

(٢) المصدر السابق (١٩١/٦).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٢١٣/١٦)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، وانظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي (١٢٥/١٧)، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٤) شذرات الذهب لابن العماد (١٨/٦، ١٩)، تحقيق محمود الأرناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

الغزالي موسوعة عصره:

وفي عصرنا كتب كثيرون عن الغزالي، وقدَّم فيه كثيرون رسائلَ وأطروحاتٍ عِلميَّة، كلٌّ في مجال اختصاصه واهتمامه.

فالفقهاء يبحثون عنه من خلال كتبه الفقهيَّة الشهيرة في مذهب الشافعي، وهي أربعة كتبٍ شهيرة، مرتبة تنازليًّا من حيث السَّعة والتعمُّق، وهي: «البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز» و«الخلاصة»، كلُّ واحد منها لمستوًى علميٍّ مُعَيَّن، وفي هذا يتناشد أهل المذهب قول القائل:

هَـذَّبَ الْـمَـذْهَـبَ حَبْرٌ أَحْـسَـنَ اللهُ خَـلَاصَـهْ
بَـبَـسِـيـطٍ وَوَسِـيـطٍ وَوَجِـيـزٍ وخُـلَاصَـةْ[1]

وكم أودُّ أنْ يبحث باحث عن فقهه غير المذهبي من خلال كتبه الأخرى، وبخاصة «الإحياء»، حيث تحرَّر في كثير من المسائل من تقليد المذهب، وبحث عن الدليل، ووازن بين الأقوال، واختار ما يراه صحيحًا، أو أصحَّ وأقوى، كما أنَّه حاول أنْ «يفقِّه» التصوُّف و«يصوِّف» الفقه، إنْ صح التعبير، وإنْ كان تصوُّفه غلب على فقهه، وعسى أنْ أُوَفَّق لمعالجة ذلك إذا يسَّر الله تعالى في بحث مستقل.

والأصوليون يدرسونه من خلال كتبه الأصوليَّة: «المنخول» الَّذي كتبه في أوائل حياته، وانتخله من آراء شيخه إمام الحرمين، و«المستصفى» الَّذي غدا أحد دعائم علم الأصول فيما بعد، وهو ـ كما ذكر في مقدمته ـ مختصرٌ من كتابه «تهذيب الأصول» الَّذي يبدو أنه فُقِد فيما فقد من ذخائرنا الفِكْريَّة الإسلاميَّة.

(١) القائل هو أبو حفص عمرو بن عبد العزيز الطرابلسي. انظر: طبقات الشافعية (٦/٢٢٣).

QaradawiBooks.com

والمشتغلون بالفلسفة والكلام والمنطق يبحثون عنه من خلال آثاره الفلسفيَّة والكلاميَّة والمنطقيَّة مثل: «مقاصد الفلاسفة»، و«تهافت الفلاسفة»، و«المنقذ من الضلال»، و«الاقتصاد في الاعتقاد»، و«فيصل التفرقة»، و«وقواعد العقائد»، و«المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، و«معيار العلم»، و«محكّ النظر»، و«القسطاس المستقيم»، و«إلجام العوامِّ عن علم الكلام»، و«جواهر القرآن»، و«كيمياء السعادة»، و«معارج القدس»، و«مشكاة الأنوار» وإنْ كان هناك من يشكُّ في نسبتهما إليه.

والباحثون في التصوُّف والأخلاق والتربية يدرسونه من خلال موسوعته الكبرى: «إحياء علوم الدِّين»، وكتبه الأخرى مثل: «منهاج العابدين»، و«بداية الهداية»، و«ميزان العمل»، و«معراج السالكين»، و«أيُّها الولد»، وغيرها.

والباحثون في الأديان والفِرق يدرسونه من خلال كتبه: «القول الجميل في الردِّ على من غيَّر الإنجيل»، و«فضائح الباطنيَّة»، و«حُجَّة الحقِّ»، و«مفصل الخلاف»، وغيرها.

والباحثون في الدراسات النفسيَّة والاجتماعيَّة يجدون مجالًا رحبًا لهم من خلال كتب الغزالي المذكورة، وخصوصًا «الإحياء»، الَّذي سجَّل فيه كثيرًا من الظواهر الاجتماعيَّة في عصره، وعرض لكثير من العلل الخُلقية، والآفات الاجتماعيَّة لدى طبقات المجتمع المختلفة، وغرورهم وغفلتهم عن أدوائهم، وحلَّل أسبابها، ونقدها نقدًا علميًّا قويًّا، ووصف الدواء لها من طب الإسلام كما فهمه.

وهناك معارف كثيرة يجدها الدارس في تراث الغزالي، أشير منها

QaradawiBooks.com

الآن إلى الجانب الاقتصادي، الَّذي له فيه نظرات عميقة وسبَّاقة، ومن تتبع «الإحياء» وحدَه يجد فيه الكثير منها، ابتداء بكتاب «العلم»، مرورًا بكتاب «أسرار الزكاة»، وكتاب «كسب المعيشة»، و«الحلال والحرام»، و«البخل»، و«الزهد» وغيرها، حتَّى قال أحد الاقتصاديين المسلمين: إنَّ أعظم ما كُتِب عن النقود ووظائفها في العصور الوسطى هو ما كتبه عنها الغزالي في كتاب «الشكر» من «الإحياء»، حين تحدَّث عن نعمة الله في هدايته الإنسان إلى استخدام النقود «الدراهم والدنانير» بدل نظام المقايضة، وما أجدر أنْ يكون ذلك الجانب موضوعًا لرسالة من رسائل «الدكتوراه» في الفكر الاقتصادي الإسلامي.

لقد كان الغزالي يمثِّل دائرة معارف عصره، وكان أحد العمالقة الَّذين عرفهم تاريخ العلم والثقافة في تراثنا السخي العريض.

ولعلَّ من أبلغ ما قيل في تصوير هذه الثقافة الموسوعيَّة للغزالي كلمة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمَّد مصطفى المراغي، شيخ الأزهر في وقته، في تقديمه لكتاب الدكتور أحمد فريد الرفاعي عن الغزالي، قال: «إذا ذُكِرت أسماء العلماء اتَّجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشُعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذُكِرَ البخاري ومسلم وأحمد، خطر بالبال رجالٌ لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أمَّا إذا ذكر الغزالي، فقد تشعَّبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجلٌ واحد، بل خطر بالبال رجالٌ متعدِّدون، لكلِّ واحدٍ قُدرته وقيمته. يخطر بالبال الغزاليُّ الأصولي الحاذق الماهر، والغزاليُّ الفقيه الحرُّ، والغزالي

QaradawiBooks.com

المتكلِّم، إمام السُّنَّة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي، الخبير بأحوال العالَم وخَفِيَّات الضمائر ومكونات القلوب، والغزاليُّ الفيلسوف، أو الَّذي ناهض الفلسفة، وكشف عمَّا فيها، إنَّه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطِّش إلى معرفة كلِّ شيء، نهِم إلى فروع المعرفة»[١].

الغزالي حُجَّة الإسلامي ومُجدِّد المائة الخامسة:

ولكن أهمِّيَّة الغزالي ليست في معرفته الموسوعيَّة، فكم في تاريخنا من موسوعيِّين لم يتبوَّؤوا مكانة الغزالي في عقول المسلمين ومشاعرهم، ولم يفوزوا بلقب «حُجَّة الإسلام».

وهنا نحبُّ أنْ نقف وقفة لنسأل:

ما الَّذي جعل مُحِبِّي الغزالي ـ وهم ـ جمهور الأُمَّة ـ يعتبرونه «حُجَّة الإسلام» ويخصُّونه بهذا اللقب دون غيره؟

ثم لماذا عدُّوه مجدِّد المائة الخامسة؟ وأنَّه الَّذي ينطبق عليه الحديث النبوي الَّذي رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في «المعرفة»: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجدِّد لها دينها**»[٢]. كما عدُّوا إمامه محمَّد بن إدريس الشافعي من قبلُ مُجدِّد المائة الثانية؟

---

(١) انظر: مقدمة الشيخ المراغي لكتاب أحمد فريد الرفاعي عن الغزالي صـ ٩، ١٠.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه، ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (١٨٤٥)، فلعلَّه سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٩٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ولقد رأينا المؤرخين والمحدِّثين يختلفون في تعيين المجدِّدين على رؤوس القرون المختلفة، ولكنَّهم لم يختلفوا في أنَّ مجدد المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، والمائة الثانية الشافعي، والخامسة الغزالي، كما يقول السُّيوطي في منظومته عن المجدِّدين:

والْخَامِسُ الْحَبْرُ هُوَ الْغَزَالِي وعَدُّهُ مَا فِيهِ مِنْ جِدَالِ[1]

دور الغزالي في نقض الغزو الفلسفي والباطني:

والَّذي يتبيَّن لدُرَّاس الغزالي، ودُرَّاس عصره أنَّ الرجل أدَّى مهمة متميِّزة في تاريخ الفكر الإسلامي، فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة كانت مصابة بما يشبه الهزيمة العقليَّة والنفسيَّة أمام النِّحَل المنشقة، والفِرَق الهدَّامة، والفلسفات الوافدة، والبِدَع الفِكْريَّة المُحْدَثة، ولم يكن ذلك لقُوَّة هذه الأفكار الغازية، بل لضعف أسلحة المدافعين عن العقيدة الإسلاميَّة.

وقد أثمرت هذه الهزيمة العقليَّة والنفسيَّة شكًّا في الدِّين، وضعفًا في اليقين، وانحلالًا في الأخلاق، واضطرابًا في السياسة، وفسادًا في الاجتماع، أشاعه أتباع الفلسفة، ودعاة الباطنيَّة، وبينهما حِلْف ظاهر، واتصالٌ خفيٌّ، وتعاونٌ مشبوهٌ، فالفلاسفة مَهَّدوا للباطنيَّة بتأويلهم المُحْكَمات بل القطعيَّات في الدِّين، وملؤوا كتبهم بالإشارات والرموز، وخصوصًا في رسائل «إخوان الصفا»، والباطنيَّة كانوا يبحثون عن أنصارهم في طُلَّاب الفلسفة، وفي بقايا الوثنيِّين، كما ذكر ذلك المستشرق «دوزي».

ولقد كان عصره بالنظر إلى الفلسفة «الإغريقيَّة الأصول» أشبه ما يكون بعصرنا بالنسبة إلى حضارة الغرب وفلسفاته الفِكْريَّة.

(١) نقله المناوي في فيض القدير (٢٨٢/٢)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

QaradawiBooks.com

لقد كانت الفلسفة هي «المعبود المقدَّس» لدى عِلْيَة المثقَّفِين الَّذين يدَّعون لأنفسهم التحرُّر من رِبْقة العصبيَّة والتقليد الفِكْري، وكان هذا هو الغزو الثقافي الناجح للعقل المسلم وللشخصيَّة المسلمة في تلك الأعصار، حيث لم يستطع الغزو اليهودي عن طريق «الإسرائيليَّات» أنْ يغيِّر من هذا العقل ويؤثِّر في اتِّجاهه، وإن استطاع أنْ يكدِّر من صفاء ينابيع ثقافته.

أثَّرت الفلسفة في تفكير الكثيرين من الأذكياء وسلوكهم، وبدأ ذلك في التحلُّل من تكاليف الدين وأحكام الشريعة، حيث وجدوا أمامهم «طائفة يعتقدون في أنفسهم التميُّز عن الأتراب والنظراء، بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدِّين ووظائف الصلوات، والتوقِّي عن المحظورات، واستهانوا بتعبُّدات الشَّرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكُلِّيَّة رِبْقة الدِّين، بفنونٍ من الظنون، يتَّبعون فيها رهطًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥].

وإنَّما مصدر كفرهم سماعُهم أساميَّ هائلة، كُقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس، وأمثالهم، وإطناب طوائف من متَّبعيهم وضلَّالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم الهندسية والمنطقيَّة والطبيعية والإلٰهيَّة، وحكايتهم عنهم أنَّهم منكرون للشرائع والنِّحَل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنَّها نواميس مؤلَّفة، وحِيَل مزخرفة»[1].

(١) من مقدمة تهافت الفلاسفة صـ ٧٣، ٧٤، تحقيق سليمان دنيا، نشر دار المعارف، مصر، ط ٤.

QaradawiBooks.com

الرجل الَّذي أعدَّه القدر لمصارعة الفلاسفة:

هكذا برز الكفر، وبرز معه التحلُّل، وبــرز معهما ومنهما الفوضى، يتطاير شــررها إلى أوضاع المجتمع كلِّه. وكان الميــدان في حاجة إلى فارس مقتدر مــدرَّب، يعرف كيف يقاتل في حلبة الفكر، مســلَّح بمثل أسلحة المهاجمين، قادر على أن يحارب خصومه بمثل ما يحاربونه به، الســيف بالســيف، والرمح بالرمح، شــجاع لا يتهيَّب خوض معركة، ولا يرهب خصمًا مهما علا صِيته، وكان ذلك الفارس الَّذي أعدَّه القدر الأعلى، ليسدَّ الثغرة، ويملأ الفراغ، هو أبا حامد الغزالي، اعترف بذلك القدماء والمعاصرون.

فمن القدماء: نجد التاج ابن السُّبْكي يقول في «طبقاته»:

«جاء والناسُ إلى ردِّ فِرية الفلاســفة أحوج من الظَّلْماء إلى مصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطَرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنفي بجِلاد مقاله، ويحمي حَــوْزة الدِّين، حتَّى أصبــح الدِّين وثيق العُرَا، وانكشفت غياهب الشُّبُهات»[1].

ومن المعاصرين: نجد العلَّامة أبا الحســن الندوي يقول في «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»:

«كان العالم الإسلامي في القرن الخامس وقد تواضعت على إضعافه الفلاسفةُ والباطنيَّة، وأحدثتا تبلبُلًا فكريًّا، يجرُّه إلى الإلحاد في العقيدة، والتدهور في الأخلاق، والاضطراب في السياســة؛ في حاجة ملحَّة إلى شــخصيَّة قويَّة جديدة، تردُّ إليه الإيمان بالعقيدة، والاعتماد على مصادر

(١) طبقات الشافعية (١٩٣/٦).

QaradawiBooks.com

الدِّين الأصيلة، والاستقامة في الأخلاق، ويُنتج الإنتاج الجديد الَّذي تكسد معه سوق الباطنيَّة، وتركد ريحها، وتعرض الإسلام عرضًا عقليًّا جميلًا، تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنيَّة، وكان لا بدَّ لهذه الشخصيَّة أنْ تكون جامعة بين العلوم العقليَّة والنقليَّة، لها في كلٍّ منها قدمٌ راسخة، وباعٌ طويلة، ونظرٌ نافذ، وتكون عقليَّة كبيرة تناهض فلاسفة اليونان، وقادة الفكر في العالم، تجري معهم في رِهانٍ واحدة، وتستطيع أنْ تدوِّن كثيرًا من العلوم تدوينًا جديدًا، وتقول فيها كلمتها، وتجمع إلى ذلك كلِّه ـ من المواهب العلميَّة والكفاية العقليَّة ـ الإيمانَ القويَّ الراسخ الَّذي اكتسبه هذا الرجل بدراسته وتأمُّلاته، وإخلاصه وجهاده في سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين، ويستطيع بكلِّ ذلك أنْ ينفخ في المجتمع الإسلامي رُوحًا جديدة وحياةً جديدة.

لقد رُزِق العالم الإسلامي ـ وهو في أشدِّ حاجة وأدقِّ ساعة ـ هذه الشخصيَّة الفذَّة في منتصف القرن الخامس الهجري: هي شخصيَّة الغزالي»[1].

كان الغزالي مُسَلَّحًا بما يمكنه من منازلة كبار الفلاسفة، ومقارعة أفكارهم بمثلها، أو بأقوى منها، ولا يفلُّ الحديدَ إلَّا الحديدُ.

وكان ممَّا أعانه على مهمَّتِه أنَّه لم يبدأ هجومه على الفلسفة، إلَّا بعد أنْ درسها واستوعبها، وتضلَّع منها، حتَّى أصبح كواحد من كبار رجالها، حتَّى إذا ردَّ عليها كان رده ردَّ الخبير بها، لا رد الدخيل عليها الغريب عنها، لعلمه يقينًا «أنَّه لا يقف على فساد نوعٍ من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتَّى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثمَّ يزيد

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام صـ ١٧٩، ١٨٠.

QaradawiBooks.com

عليه ويجاوز درجته، فيطَّلع على ما لم يطَّلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة» كما ذكر في «المنقذ»[١]، وقد تجلَّت هذه الدراسة والمعرفة في كتابه الشهير «مقاصد الفلاسفة».

كما أعانه على ذلك عقل حرٌّ متمرِّد، يأبى أنْ يُقَيَّد بأغلال التقليد ولو كانت من ذهب، ويبحث عن الحقِّ والدليل حيث كان، منذ فجر الشباب.

أجل، كان الغزالي رجُلًا طُلَعة، مولَعًا بالبحث عن الحقيقة، والسعي وراء المجهول، والتفتيش عن اليقين الَّذي ينشرح به الصدر، ويطمئنُّ به القلب، لا يقنع بالتقليد، فالتقليد لا ينتج علمًا يقينيًّا، ولا يكتفي بالظنِّ، فالظنُّ في قضايا الاعتقاد والأصول لا يُغني من الحقِّ شيئًا، ولهذا شدَّد الحملة على التقليد والمُقلِّدين، وممَّا قاله في ذلك:

«اعلمْ يا أخي أنَّك متى كنتَ ذاهبًا إلى تعرُّف الحقِّ بالرجال، من غير أن تتَّكل على بصيرتك، فقد ضلَّ سعيُك، فإنَّ العالِم من الرجال، إنَّما هو كالشمس، أو كالسِّراج، يعطي الضوء، ثمَّ انظر ببصرك، فإن كنت أعمى، فما يغني عنك السراج والشمس، فمن عوَّل على التقليد، فقد هلك هلاكًا مطلقًا»[٢].

وقد نشأ في عصر تعدَّدت فيه النِّحَل والمدارس العقليَّة، وتصارعت فيه الاتِّجاهات الفِكْريَّة والدينيَّة داخل الساحة الإسلاميَّة، ووجد نفسه أمام بحرٍ لُجِيّ من اختلاف المذاهب والتيارات، متلاطم الأمواج، عميق

(١) المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي صـ ١٠٣، تعليق الشيخ عبد الحليم محمود، نشر دار الكتب الحديثة، مصر.

(٢) معراج السالكين صـ ٨٩، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

QaradawiBooks.com

القاع، فلم يقف موقف المتفرِّج، ولم يرُعْه سعة البحر، ولا شِدَّة الموج، ولا عُمْق القاع، ولا كثرة من غَرَق من قبل، ممَّن لم يُحسن الغوص والسباحة، بل خاض هذا البحر الخِضَم خوضَ الماهر الجَسور، لا خوض الجبان الحذور.

وما أجدرنا أنْ ننقل عبارته هنا بنصها من «المنقذ»، لما فيها من وضوح ونصاعة! يقول مبيِّنًا ما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطُّرُق، وما استجرأ عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى بقاع الاستبصار:

«ولم أزل في عُنفوان شبابي منذ راهقتُ البلوغ، قبل بلوغ العشرين، إلى الآن، وقد أناف السِّنُّ على الخمسين؛ أقتحم لُجَّة هذا البحر العميق، وأخوض غُمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغَّل في كلِّ مظلمة، وأتهجَّم على كل مشكلة، وأتقحَّم كل ورطة، وأتفحَّص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين مُحِقٍّ ومُبْطل، ومتسنِّنٍ ومبتدع.

لا أغادر باطنيًّا إلَّا وأحبُّ أنْ أطَّلع على بِطانته، ولا ظاهريًّا إلَّا وأريد أنْ أعلم حاصل ظاهريَّته، ولا فلسفيًّا إلَّا وأقصد الوقوف على كُنه فلسفته، ولا متكلِّمًا إلَّا وأجتهد في الاطِّلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًّا إلَّا وأحرص على العثور على سرِّ صفوته، ولا متعبِّدًا إلَّا وأترصَّد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا مُعَطِّلًا إلَّا وأتحسَّس وراءه للتنبُّه لأسباب جُرأته في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطُّش إلى دَرك حقائق الأمور دأبي وديني، من أوَّل أمري وريعان عمري؛ غريزةً وفطرةً من الله وُضعتا في جِبِلَّتي، لا باختياري

QaradawiBooks.com

وحيلتـــي، وحتى انحلَّت عَنِّي رابطـــة التقليد، وانكســـرت عليَّ العقائد الموروثة، على قرب عهد سِنِّ الصِّبَا»[١].

وشيء آخر ساعد الغزالي على نقد الفلسفة، وإظهار تهافت الفلاسفة هو ثقته بنفسه، واعتداده بفكره، وشجاعته الأدبيَّة، الَّتي لم ترُعْها الأسماء الطنَّانة، ولا الألقاب الضخمة، وهو يريد لقارئه أنْ يصحب معه هذه الرُّوح الَّتي لا تبالي بشهرة القائلين، بل بصواب القول، ويحاول بأسلوبه اللاذع أنْ يهوِّن من تلك الأســـماء وأصحابها بتعليقاته الســـاخرة على مقولاتها «الَّتي هي على التحقيق مَضاحِك العقلاء، وعِبْرة عند الأذكياء»[٢].

فهو يُعَقِّب مرَّة على قولهم في العقول العشرة، والأفلاك وكيف تولَّد بعضها من بعضٍ، ممَّا لم يقم عليه دليلٌ من عقلٍ ولا وحيٍ ولا تجربة، فيقـــول: «ما ذكرتموه تحكُّمـــات. وهي ـ على التحقيـــق ـ ظُلُمات فوق ظلمات، لو حكاه إنسان عن منامٍ رآه لاستدلَّ به على سوء مزاجه»[٣]!

ثُمَّ إنَّ الغزالي حين وقف في وجه الفلسفة الغازية، لم يقف محاربًا لها باعتباره ســـنيًّا، أو أشعريًّا، أو شـــافعيًّا، بل باعتباره مسلمًا فحسْب، وهذه الفلســـفة تريد أنْ تقتلع جذور الجميع، ولا تُبقى للدين باقية، فهو لهذا يستمدُّ أســـلحته من جميع الفرق والمذاهب، ويعبِّئ كِنَانته من كلِّ سهم يجده عند هذا المذهب أو ذاك، وهو يقول مُبَيِّنًا غرضه:

«ليُعلَمْ أنَّ المقصود تنبيه من حسُـــن اعتقاده في الفلاسفة، وظنَّ أنَّ مســـالكهم نقيَّة من التناقض، ببيان وجوه تهافتهـــم، فلذلك أنا لا أدخل

(١) المنقذ من الضلال صـ ٨٨، ٨٩.

(٢) مقدمة تهافت الفلاسفة صـ ٧٥.

(٣) المصدر السابق صـ ١٤٦.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عليهم إلَّا دخـــول مُطَالِب مُنْكِـــر، لا دخول مدَّعٍ مُثْبِـــت، فأكدِّر عليهم ما اعتقدوه مقطوعًـــا بإلزامات مختلفة، فأُلزمهم تـــارةً مذهبَ المعتزلة، وأخرى مذهبَ الكَرَّامية، وطورًا مذهب الواقفيَّـــة، ولا أتنهَّض ذابًّا عن مذهبٍ مخصوص، بل أجعل جميع الفرق أَلْبًا واحدًا[1] عليهم، فإنَّ سائر الفِـــرَق ربَّما خالفونا فـــي التفصيل، وهؤلاء يتعرَّضـــون لأصول الدِّين، فلنتظاهرْ عليهم، فعند الشدائد تذهب الأحقاد»[2].

وما أحقَّ مســـلمي اليوم أنْ يســـتفيدوا من هذا الـــدرس من الإمام الغزالي، فينسوا خلافاتهم الجُزْئية، ومعاركهم الجانبية! فيقفوا ألبًا واحدًا على أعداء الإسلام، وما أكثرهم!

هذا إلى أنَّ الغزالي كان يعرف ميدانه جيدًا، ويعرف من عدوه، فهو لم يشن غارته على كل الفلاسفة، ولم يصوِّب سهامه إلى أنواع الفلسفة، وبهذا حدَّد مجال معركته.

كانت الفلسفة في عصر الغزالي تشمل شُعَبًا عِدَّة، بعضها خرج اليوم من نطاق الفلســـفة تمامًا، إلى نطـــاق العلم، مثـــل الرياضيَّات والطبيعة «الفيزياء» كما كان المنطق جزءًا منها.

وكان من شُعَب الفلسفة ما لا يتعلَّق بالأخلاق والسياسة.

وكان من خطر الفلســـفة ـ كمـــا رآه الغزالي بوضـــوح ـ يتجلَّى في الفلســـفة الإلٰهيَّة أو«الميتافيزيقيَّة» كما يســـمُّونها، فهي الَّتي تنازع الدين نزاعًا مباشرًا في سلطانه، وتريد أنْ تخرجه من ملكه، فتكون كلمتها هي العليا وكلمته هي السفلى.

(١) الألب، بالفتح والكسر: القوم يجتمعون على عداوة إنسان. لسان العرب مادة (أ. ل. ب).

(٢) من المقدمة الثالثة للتهافت صـ ٨٢، ٨٣.

QaradawiBooks.com

ومن ثَمَّ كان هجوم الغزالي منصبًّا عليها، وقد بيَّن ذلك بجلاء في «التهافت» و«المنقذ»، وحذَّر من الخلط بين شُعَب الفلسفة المختلفة، وإنكار ما لا يجوز إنكاره منها، كما يفعل بعض الأصدقاء الجهلة للإسلام.

لم يشغل الغزالي نفسه، ولم يُجهد فكره ولا قلمه في الرد على «الدهريين»، ولا «الطبيعيِّين» من الفلاسفة، ممَّن ينكرون الألوهيَّة، أو ممَّن يُقِرُّون بها ويُنكرون الآخرة؛ لأن أمر هؤلاء وهؤلاء مكشوف مفروغ منه، ولا يتصوَّر من مسلم قبول فِكْرتهم، ولا الانخداع بها؛ لأنَّ مخالفتها للإسلام واضحة وضوح الصُّبْح لذي عَيْنين، وقد كفاه غيرهم من الفلاسفة أنفسِهم الردَّ عليهم.

إنَّما الخطر في الفلاسفة الَّذين يُعرَفون باسم «الإلٰهيِّين»، الَّذين يُقرُّون بوجود الصانع، أو واجب الوجود، أو العِلَّة الأولى، أو المحرِّك الأول، على اختلاف تسمياتهم، والَّذين لا يجحدون الدين صراحة، ولكن يُناقضون عقائده وشرائعه ومُعطياته الأساسية مناقضة جذرية بيِّنة، لمن سبر غوْرَهم، وهتك سترهم.

فكانت معركة الغزالي مع هؤلاء، وقد قسم فلسفتهم إلى أقسام:

قسم يجب التكفير به (وصف من ذهب إليه بالكفر)، وقسم يجب التبديع به (وصف من ذهب إليه بالبدعة)، وقسم لا يجب إنكاره أصلًا.

وأوضح في «المنقذ» أقسام علومهم، وموقف الدين منها غاية الإيضاح.

١ ـ **فأمَّا «الرياضيَّة» منها**: فتتعلَّق بعلم الحساب، والهندسة، وعلم هيئة العالم، وليس يتعلَّق شيءٌ منها بالأمور الدينيَّة نفيًا وإثباتًا، بل هي أمورٌ بُرهانيَّة، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها.

QaradawiBooks.com

ولكنَّه بيَّن هنا أنَّ ثَمَّةَ آفتَيْن تولَّدتا منها، لا لذاتها:

الأولى: أن من ينظر فيها يتعجَّب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيُحسِن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، فيحسب أنَّ جميع علومهم في الوضوح، وفي وثاقة البرهان كذا العلم، ثمَّ يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المَحْضِ، ويقول: لو كان الدين حقًّا، لما خَفِيَ على هؤلاء مع تقدُّمهم في هذا العلم، فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم، فيستدل على أنَّ الحقَّ: هو الجحد والإنكار للدِّين، وكم رأيت من يَضِلُّ عن الحقِّ بهذا القدر، ولا مستندَ له سواه!

وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أنْ يكون حاذقًا في كلِّ صناعة، فلا يلزم أنْ يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقًا في الطبِّ، بل لكلِّ صناعةٍ أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها، فكلام الأوائل في الرياضيَّات بُرهاني، وفي الإلٰهيَّات تخميني؛ لم يستجبْ لصوت العقل، بل تحمله غلبةُ الهوى وشقوة البطالة، وحبُّ التكايس على أنْ يُصِرَّ على تحسين الظنِّ بهم في العلوم كلها.

الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظنَّ أنَّ الدِّين ينبغي أنْ ينصر بإنكار كلِّ علمٍ منسوبٍ إليهم: فأنكر جميع علومهم، وادَّعى جهلهم فيها، حتَّى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أنَّ ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع مَن عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشكَّ في برهانه، لكن اعتقد أنَّ الإسلام مبنيٌّ على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حُبًّا، وللإسلام بُغضًا.

QaradawiBooks.com

ولقد عظُمت على الدِّين جِناية من ظنَّ أنَّ الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرُّض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينيَّة.

فهذا حكم الرياضيَّات وآفاتها[١].

٢ ـ **وأمَّا المنطقيَّات**: فلا يتعلَّق شيء منها بالدِّين نفيًا وإثباتًا، بل هو النظر في طرق الأدلَّة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفيَّة تركيبها، وشروط الحدِّ الصحيح، وكيفيَّة ترتيبه، إلخ.

وليس في هذا ما ينبغي أن يُنكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلِّمون وأهل النظر في الأدلَّة[٢].

٣ ـ **وأمَّا علم الطبيعيَّات**: فهو بحثٌ عن عالم السماوات وكواكبها، وما تحتها من الأجسام المفردة: كالماء والهواء، والتراب، والنار[٣]، ومن الأجسام المُرَكَّبة: كالحيوان، والنبات، والمعادن، وعن أسباب تغيُّرها واستحالتها وامتزاجها، وذلك يضاهي بحث الطبِّ عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسيَّة والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه، وكما أنَّه ليس من شرط الدِّين إنكار علم الطبِّ، فليس من شرطه أيضًا إنكار ذلك العلم، إلَّا في مسائل مُعَيَّنة، ذكرناها في كتاب: «تهافت الفلاسفة»، وما عداها ممَّا يجب المخالفة فيها، فعند التأمُّل يتبيَّن أنَّها مندرجة تحتها.

---

(١) المنقذ من الضلال صـ ١١٣ ـ ١١٦.

(٢) المصدر السابق صـ ١١٦.

(٣) كان الفلاسفة قديمًا يعتقدون أنَّ الماء والهواء والتراب والنار عناصر بسيطة أو مفردة، وما عداها مركبات، وقد أثبت العلم الحديث خطأ هذا كله، مما أصبح معلومًا لدى التلاميذ في مدارسهم.

QaradawiBooks.com

وأصل جملتهـا: أنْ تعلـم أنَّ الطبيعة مسـخَّرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها، بل هي مسـتعملة من جهة فاطرها، والشـمس والقمر والنجوم والطبائع مسخَّرات بأمره، لا فعل لشيءٍ منها بذاته عن ذاته.

٤ ـ **وأمَّا الإلٰهيَّـات**: ففيها أكثـر أغاليطهم، فما قـدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها.

ولقد قرُب مذهب «أرسطاطاليس» فيها من مذاهب الإسلاميِّين، على ما نقله الفارابي وابن سينا.

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلًا يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سـبعة عشـر، ولإبطـال مذهبهم في هذه المسائل العشـرين، صنَّفنا كتاب «التهافت»، أمَّا المسـائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافَّة المسلمين، وذلك في قولهم:

إنَّ الأجساد لا تُحْشَر، وإنَّما المُثاب والمُعاقَب هي الأرواح المجرَّدة، والمثوبات والعقوبات رُوحانيَّة لا جِسمانيَّة.

ولقد صدقوا في إثبات الرُّوحانيَّة، فإنَّها كائنة أيضًا، ولكن كذَّبوا في إنكار الجِسمانيَّة، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به.

ومن ذلك قولهم: إنَّ الله تعالـى يعلم الكُلِّيَّات دون الجزئيَّات. وهذا أيضًا كُفْـر صريح، بل الحـقُّ أنَّه: لا يعـزُب عن علمه مثقـال ذرَّة في السماوات ولا في الأرض.

ومن ذلك قولهم بقِدَم العالم وأزليَّته[1].

(١) ذكر د. أبو ريدة في تعليقاته على «دي بور»: إنَّ الفيلسوف الكِنْدي يصرح بحدوث العالم، وإنَّه مبتدَع (بفتح الدال) وإن له مدة محدودة، قدَّرها له مبدِعه، وهو يفنيه إن شاء. =

QaradawiBooks.com

فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيءٍ من هذه المسائل.

وأمَّا ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم: إنَّه عليمٌ بالذات لا بعلمٍ زائدٍ على الذات، وما يجري مجراه، فمذهبُهم فيها قريبٌ من مذهب المعتزلة، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك.

وقد ذكرنا في كتاب: «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» ما يتبين فيه فساد رأي من يسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه.

٥ ـ وأمَّا السياسيَّات: فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحِكَم المصلحيَّة المتعلِّقة بالأمور الدُّنيويَّة، والإيالة[١] السُّلطانيَّة، وإنَّما أخذوها من كتب الله المنزَّلة على الأنبياء، ومن الحِكَم المأثورة عن سلف الأنبياء.

٦ ـ وأمَّا الخُلُقية: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها، وكيفيَّة معالجتها ومجاهدتها.

وإنَّما أخذوها من كلام الصوفيَّة[٢].

ولقد كان في عصرهم ـ بل في كلِّ عصر ـ جماعة من المتألِّهين، لا يُخَلِّي اللهُ سبحانه العالم عنهم[٣] اهـ.

= وكذلك الفارابي، فهو يؤكد حدوث العالم من لا شيء، بل نراه يستقبح في كتابه: الجمع بين رأي الحكيمين، رأى من يظن أنَّ أرسطو يقول بقدم العالم!
قال أبو ريدة: وهذا شيء غريب جدًّا؛ لأنَّه يخالف الحكم السائد الذي صار منذ عصر الغزالي هو المعتبر فيما يتعلق بفلاسفة الإسلام! انظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام تأليف دي بور صـ ٢٣٤، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط٥، بيروت. فلم يبقَ إلَّا ابن سينا.

(١) آل رعيته إيالة: ساسها. المصباح المنير مادة (ء. و. ل).

(٢) كلام الغزالي عن الفلسفة السياسية والخلقية مجمل، يحتاج إلى تفصيل وتقييد، ولا يؤخذ على إطلاقه.

(٣) المنقذ من الضلال صـ ١١٧ ـ ١٢٤.

QaradawiBooks.com

وهكذا كانت رؤية الغزالي واضحة لما يُقبل من الفلسفة، وما يُرفض، وما وراء المقبول من آفات، وما وراء المرفوض من أخطار، فلم يحارب في غير ميدانه، ولم يوجِّه أسلحته لغير عدوه.

وكان عدوُّه ـ كما رأينا ـ الجانب «الميتافيزيقي»، فأفرغ جهده في نقضه وبيان تهافته، حتَّى بعض الموضوعات الَّتي يوافق فيها الفلاسفة، مثل خلود النَّفْس، أراد أنْ يُبَيِّن عجزهم عن إقامة الأدلَّة عليها، وذلك ليُبْرز وجه الضرورة إلى الدِّين.

من أجل هذا كلِّه كسب الغزالي المعركة مع الفلسفة، وكسدت من بعده بضاعتها الَّتي طالما نَفَقت سُوقها، وكانت ضربته لها ـ فيما يرى الكثيرون من مؤرِّخي الفكر ـ ضربةً قاصمة أصابتها في الصميم.

أقلُّ ما يقال فيها: إنَّها أزالت عنها هالة القدسيَّة الَّتي كانت لها في أنفس الكثيرين قبل الغزالي، فلم تعد «الوثن» الَّذي يُرهب ولا يُمسُّ، بل تجرَّأ الكثيرون عليه، ويكفي الغزالي أنَّه وضع الفلسفة في «قفص الاتِّهام»، واضطرها أنْ تقف «موقف الدفاع» عن نفسها، بعد أن كانت من قبل في «موقف الهجوم».

لم يكن الغزالي يريد بهدم الفلسفة أنْ يبني نظريَّة له، أو مذهبًا خاصًّا به، إنَّما يريد أنْ ينقض الفلسفة ليُقيم الدِّين، وأنْ يُعلن هزيمتها لينصر الدِّين، أو «ليُحيي علوم الدِّين»، وليثبت بمنطق العقل نفسه، وسلاح الفلسفة ذاتها: أنَّ مُضِيَّ العقل وحده دون الاهتداء بنور الوحي، لا يؤدِّي إلَّا إلى التيه في بيداء التناقض والحَيْرة.

QaradawiBooks.com

نقض الفلسفة لا يعني التنكُّر للعقل:

ومن الظلم البيِّن للغزالي أنْ يُتَّهم بأنَّه إذ نقض الفلسفة، فقد نقض العقل وتنكَّر له، ولم يخرج عن دائرة التقليد، كما يتوهَّم ذلك بعض الدارسين المتعجِّلين ممَّن كتبوا عن الغزالي وقالوا: إنَّه بكتابه «التهافت» قد أعلى صوت «الإيمان» على «العقل».

والحقُّ أنَّه أعلى به صوتَ «العقل» الناقد المستقلِّ على «العقل» المتأثِّر المقلِّد المسلِّم لآراء الكبار دون امتحانها، وإعلاء صوت العقل المستقلِّ في نظر الإسلام يعني إعلاء صوت الإيمان أيضًا، ولا تنافي في الإسلام بين العقل والإيمان.

ومن هنا ظلَّ الغزاليُّ يُعلن أنَّ العقل أساس النقل، فلولاه ما ثبتت النبوُّة والشريعة، وهو يرفض التقليد في الاعتقاديَّات، ويشكُّ في الأفكار التقليديَّة الموروثة عن الفِرَق والمذاهب المختلفة الَّتي يُلقَّنها الناس، ويأخذونها عمَّن سبقهم قضايا مُسَلَّمة لا تحتمل الجدلَ ولا الشكَّ.

كرَّر هذا في أكثر من كتابٍ، وفي مناسبات عدَّة.

وحسْبُنا هنا كلماته المضيئة في كتابه «ميزان العمل»، حيث يدعو إلى طلب الحقِّ بطريق النظر والفكر المستقلِّ، لا بطريق التقليد الأعمى لزيدٍ أو عمرٍو من النَّاس.

وفي ذلك يقول: «فجانبْ الالتفات إلى المذاهب، واطلُب الحقَّ بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن في صورة أعمى، تقلِّد قائدًا يرشدك إلى الطريق، وحولك ألفٌ مثل قائدك ينادون عليك بأنَّه أهلكك وأضلَّك عن سواء السبيل! وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص

QaradawiBooks.com

إلَّا في الاستقلال. ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلَّا ما يشكِّك في اعتقادك الموروث، لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعًا! إذ الشكوك ـ يعني في الموروثات ـ هي الموصلة إلى الحقِّ، فمن لم يشكَّ لم ينظر، ومن لم ينظر لم يُبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والظلال»[(١)].

موقف الغزالي بين العقل والنقل:

يؤكد الغزالي هنا مبدأً مهمًّا ـ عمَّقه ووسعه ابن تيمية بعد[(٢)]، على اختلاف بينهما في تطبيقه ـ وهو أنَّ العقل والشرع لا يتعارضان تعارضًا حقيقيًّا من الناحية النظريَّة؛ لأن كليهما نور من عند الله، فلا ينقض أحدهما الآخر، ولا من الناحية العمليَّة، فلم يثبت أنْ اصطدمت حقيقة دينيَّة بحقيقة عقليَّة، بل يرى الغزالي أنَّ أحدهما يؤيِّد الآخر ويصدِّقه[(٣)].

---

(١) ميزان العمل للغزالي صـ ٤٠٩، تحقيق د. سليمان دنيا، نشر دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٤هـ.

(٢) في كتابه الكبير: درء تعارض العقل والنقل، وقد نشرته أخيرًا جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في عشرة أجزاء، تحقيق د. محمد رشاد سالم، وهو الكتاب الذي عرف حينًا باسم: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول.

(٣) في معارج القدس ـ وهو ينسب إلى الغزالي ـ تقرأ هذه الفقرة:
«اعلم أنَّ العقل لن يهتدي إلَّا بالشرع، والشرع لم يتبيَّن إلَّا بالعقل، فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس.
وأيضًا: فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر.
فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان». معارج القدس صـ ٥٧، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٥م.
والكلام هنا شبيه بكلام الغزالي، ولكني أشكُّ كثيرًا في صحة نسبه الكتاب إليه، فنَفَسه غير نفَس الغزالي في كتبه، وطريقة تقسيمه وترتيبه غير طريقة الغزالي، ولم يذكره أحد في كتبه ممن ترجموا له، كما أنه لا يحيل ولا يشير إلى أي كتاب آخر له، كما هو شأنه في كتبه الأخرى، كما لم يشر إليه في أي كتاب من كتبه، وجعله د. بدوي، في جملة الكتب =

QaradawiBooks.com

بل نراه في «المستصفى»، وهو من أواخر ما صنَّف، يعتبر العقل قاضيًا، والشرع شاهدًا، حيث يقول بعد الديباجة: «أمَّا بعد، فقد تناطق قاضي العقل، وهو الحاكم الَّذي لا يُعزل ولا يبدَّل، وشاهد الشرع، وهو الشاهد المزكَّى المعدَّل؛ بأنَّ الدُّنيا دار غرور، لا دار سرور، ومحلُّ تجارة، لا مسكنُ عمارة، ومتجرٌ بضاعتُها الطاعة، والطاعة طاعتان: عمل وعلم، والعلم أنجحها وأربحها، فإنَّه أيضًا من العمل، ولكنَّه عمل القلب، الَّذي هو أعزُّ الأعضاء، وسعي العقل، الَّذي هو أشرف الأشياء؛ لأنَّه مَرْكِب الديانة، وحامل الأمانة، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء، فأشفقن من حملها، وأبينَ أن يحمِلْنَها غاية الإباء»[(١)].

وها هو في «الإحياء» نراه يدعو إلى المزج بين العلوم العقليَّة والعلوم الدينيَّة، يُبَيِّن الحاجة إلى كلٍّ منهما، ويُقَرِّر أنْ لا غنى بالعقل عن السمع، ولا غِنًى بالسمع عن العقل: «الداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكُلِّيَّة جاهلٌ، والمكتفي بمجرَّد العقل عن أنوار القرآن والسُّنَّة مغرور، فإيَّاك أنْ تكون من أحد الفريقين، وكن جامعًا بين الأصلين.

فإنَّ العلوم العقليَّة كالأغذية، والعلوم الشرعيَّة كالأدوية، والشخص المريض يستضرُّ بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب، لا يمكن علاجها إلَّا بالأدوية المستفادة من الشريعة...»[(٢)].

= المشكوك في صحة نسبتها للغزالي. (رقم ٧٦ صـ ٢٤٤) من: مؤلفات الغزالي، نشر وكالة المطبوعات الكويت.

(١) المستصفى للغزالي صـ ٣، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) إحياء علوم الدين (١٧/٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

ثم يحمل الغزالي بقُوَّةٍ على من يظنُّ أنَّ ثَمَّــة تناقضًا بين العقليَّات والشرعيَّات، فيقول:

«وظنَّ من يظن أنَّ العلــوم العقليَّة مناقضة للعلوم الشــرعيَّة، وأنَّ الجمع بينهما غير ممكن، وهو ظنٌّ صادرٌ عن عمًى في عين البصيرة، نعوذ بالله منه.

بل هذا القائل ربَّما يناقض عنده بعض العلوم الشرعيَّة لبعض فيعجز عن الجمع بينهمــا، فيظنُّ أنَّه تناقضٌ في الدِّين! فيتحيَّر به، فينســلُّ من الدِّين انسلالَ الشَّعرة من العجين! دائمًا ذلك؛ لأن عجزه في نفْسِه خيَّل إليه نقصًا في الدِّين، وهيهات»[(١)].

وهو يصف عصابة الحقِّ وأهل السُّنَّة في مُقَدّمة كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» بأنَّهم «وحدهم الَّذين اهتدوا إلى أسرار ما أنزل الله على رسوله، واطَّلعوا على طريق التلفيق[(٢)] بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحقَّقوا أن لا معاندة بين الشــرع المنقول والحقِّ المعقول، وعرفوا أنَّ من ظنَّ من الحشويَّة وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أتوا به إلَّا من ضعف العقــول، وقلة البصائر، وأنَّ من تغلغل من الفلاســفة و«غلاة» المعتزلة في تصرُّف العقل، حتَّى صادموا به قواطع الشــرع[(٣)]،

(١) إحياء علوم الدين (١٧/٣).

(٢) كلمة «التلفيق» يعني بها ما نعنيه بكلمة «التوفيق» الآن، وليس يعني بها ما يوحي به اللفظ في عرفنا اليوم من الاحتيال على الجمع بين متنافرين.

(٣) أنكر د. عادل العوا في تقديم الاقتصاد في الاعتقاد على الغزالي ضمه المعتزلة إلى الفلاسفة في العزوف عن الاســتضاءة بنور الشــرع، وقال: إنَّهم متكلمــون والمتكلمون هم حراس العقيــدة بالعقل... ولكن عبارة الغزالي لا تشــمل كل المعتزلة بل الغــلاة منهم، فلا وجه للاعتراض. الاقتصاد في الاعتقاد صـ ٢٤، نشر دار الأمانة، ط١، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

QaradawiBooks.com

ما أتوا به إلَّا من خُبث الضمائر، فمَيْل أولئك إلى التفريط، ومَيْل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيدٌ عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملاءمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم».

ويذكر الغزالي هنا مثالًا للعقل والشرع، فمثال العقل: البصر السليم من الآفات، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، ولا يستغني بأحدهما عن الآخر، إلَّا من كان في غمار الأغبياء «فالمُعْرِض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن مثاله المتعرِّض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نورٌ على نور، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما متدلٍّ بحبلٍ غرور»[1].

فلا يجوز إذن نصب العقل عدوًّا للشرع، ولا نصب الشرع عدوًّا للعقل.

ولا يُتصوَّر أن يثبت الشرع ما ينفيه العقل (أي ما يقطع باستحالته)، ولا أن ينفي ما ثبَّته العقل، أي ما يقيم البراهين اليقينيَّة على وجوده.

والعكس ثابت أيضًا، بمعنى أنَّ العقل لا يُتصوَّر أنْ يثبت ما يقطع الشرع بنفيه، ولا أنْ ينفي ما يقطع الشرع بثبوته.

وبعبارة موجزة يرى الغزالي: أنَّ العقل لا يمكن أنْ يثبت حقيقة ينفيها الشرع، وأنَّ الشرع لا يمكنه أنْ يأتي بعقيدة يُحيلها العقل.

وإذا وقع شيء من ذلك فلا بدَّ أن يكون من جاهل متوهِّم على العقل، أو متوهِّم على الشرع.

(١) مقدمة الاقتصاد في الاعتقاد صـ ٧٠.

QaradawiBooks.com

وما كانت حملته في «التهافت» على الفلاسفة، إلَّا لأنَّهم توهَّموا على العقل، فأثبتوا باسمه ما لا برهان عليه، ونفوا تحت مِظَلَّته ما لا دليل على نفيه، وجاؤوا بما لا يُقبل في العلوم الظنِّيَّة، فكيف يقبل في العقليَّات؟!

وقد رأينا حملته في «المنقذ» على من سمَّاه «الصديق الجاهل» للإسلام الَّذي أنكر ـ باسم الشرع ـ ما قاله الفلاسفة في الكسوف والخسوف، ونحو ذلك ممَّا يتصل بالعلوم الرياضية، من شُعَب الفلسفة القديمة، مع أنَّ أدلَّتها بُرهانيَّة يقينيَّة، لا سبيل إلى مجاحدتها.

ومع تقرير هذا المبدأ ـ عدم تعارض العقل والشرع ـ أوضح أن لكلٍّ من العقل والشرع اختصاصًا، أو دائرة ينفذ فيها سلطانه، ولا يتجاوزه.

وجعل الغزالي من اختصاص العقل إثبات أعظم قضيتَيْن من قضايا الفلسفة وأخطر قضايا الدِّين، وهما: وجود الله، وثبوت النبوَّة.

فوجود الله وقدرته وإرادته وعلمه إنَّما يثبت بالعقل، وما لم يثبت ذلك بالعقل لم يثبت الشرع[1].

وكذلك بيان أنَّ هذا العالم من فعله الجائز في حقِّه، وأنَّ بعث الرسل من أفعاله الجائزة، وأنَّه قادرٌ عليه وعلى تعريف صدقهم بالمعجزات؛ لأنَّه تعالى لا يُضِلُّ عباده، وأنَّ هذا الجائز واقع.

وبهذا يدلُّ العقل على صدق النبيِّ، ثمَّ يعزل العقل نفسه عندئذ، وينتهي تصرُّفه، ويعترف بأنَّه يتلقَّى من النبيِّ بالقَبول ما يقوله في الله واليوم الآخر، ممَّا لا يستقلُّ العقل بإدراكه، ولا يقضي أيضًا باستحالته[2].

(١) الاقتصاد في الاعتقاد صـ ١٩٨.

(٢) انظر: المستصفى صـ ٦.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وبهذا يرى الغزالي أنَّ وظيفة العقل إثباتُ الشرع عن طريق إثبات خالق العالَم، وإثبات النبوَّة الَّتي يمنحها لمن يصطفي من عباده، فإذا ثبت الوحي من الله، كان من واجب العقل بعد ذلك أن يتلقى منه، لا أن يعترض عليه، وبتعبير الغزالي: «يعزل العقل نفسه» من منصب القضاء في أمر الدِّين، ليقول في الاعتقاديَّات: آمنَّا وصدَّقنا، ويقول في العمليَّات: سمعنا وأطعنا.

وإنَّما عزل العقل نفسه هنا ليتلقى من مشكاة النبوَّة ووحي الله إلى نبيِّه؛ لأنَّ الوحي معصوم، والعقل لا عصمة له، والعقل وإن كان نورًا، ففرق كبير بينه وبين نور النبوَّة. فهداية النبوَّة فوق هداية العقل، أو هي ـ على حدِّ تعبيره ـ طورًا وراء العقل، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصَّة، والعقل معزولٌ عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواسّ عن إدراك المعقولات[1].

وهو آثر طريق الصوفيَّة؛ لأنَّهم في نظره في حركاتهم وسكناتهم وظاهرهم وباطنهم مُقْتَبِسون من نور مشكاة النبوَّة، وليس وراء نور النبوَّة على وجه الأرض نور يُستضاء به[2].

وعزْلُ العقل نفسه بعد ثبوت النبوَّة والوحي، لا يعني إلغاء دوره بالمرَّة، فهذا لم يقل به الغزالي، ولا أحد من أئمَّة الإسلام.

فالعقل هو المكلَّف بتفسير النصوص، واستنباط الأحكام منها، وممَّا لا نصَّ فيه، ووضع الأصول الضابطة لذلك، وتأويل ما يحتمل التأويل منها، إذا تعارضت الظواهر مع القواطع العقليَّة، وإزالة التعارض بين بعضها وبعض.. إلى غير ذلك ممَّا يعمل فيه العقل.

(١) المنقذ من الضلال صـ ١٦١.

(٢) المصدر السابق صـ ١٤٥.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يقول الغزالي: «وكلُّ ما ورد السمع به ينظر، فإن كان العقل مجوِّزًا له وجب التصديق بـه قطعًـا إن كانت الأدلَّة السـمعيَّة قاطعـة في متنها ومستندها، لا يتطرَّق إليها احتمال.

ووجب التصديق بها ظنًّا إن كانت ظنِّيَّة.

وأما ما قضى العقل باسـتحالته، فيجب فيه تأوُّل ما ورد السمع به، ولا يُتصوَّر أن يشمل السمع على قاطِع مخالِف للمعقول.

فإن توقَّـف العقل في شـيءٍ من ذلك، فلـم يقض فيه باسـتحالة ولا جـواز، وجب التصديـق أيضًا لأدلَّة السـمع، فيكفـي في وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة»[1].

وعلى هذا الأسـاس طبَّق الغزالي ما جاء به الشـرع من سؤال القبر ونعيمه وعذابه، ومن الحشـر والنشـر، والصراط والميزان ونحوها من أمور الآخرة، فهي أمور ممكنة في نظر العقل، دلَّت عليها قواطع السمع، فوجب التصديق بها.

وما يثيره بعض النَّاس من شـبهات عقليَّة حولهـا، فالغزالي يردُّها بمنطق العقل أيضًا.

فهذا هو موقف العقل في مجال «العقائـد». وربَّما اتُّهِم الغزالي من بعض خصومه ـ ولا سيَّما من المدرسة السَّلَفِيَّة ـ بأنَّه استخدم العقل في «التأويل» أكثر ممَّا ينبغي.

وللعقـل دور كذلـك لا ينكر فـي مجـال «العمليَّات» فـي الفقه والأصول، الَّتي يجتمع فيها العقل والشرع في نظر الغزالي، وهي أفضل العلوم فيما يرى.

(١) الاقتصاد في الاعتقاد صـ ١٩٨، ١٩٩.

QaradawiBooks.com

يقول في مقدمة كتابه «المستصفى»، وقد صنَّفه قبل وفاته بنحو عامين، بعد أن قسَّم العلوم إلى عقلي محض، كالحساب والهندسة، وإلى دينيٍّ محض كالحديث والتفسير، قال: وأشرف العلوم: ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل، فإنَّه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل[١].

لكنَّ الغزالي يرى في مجال «العمليَّات» أنَّ هناك «منطقة محرَّمة» يجب على العقل أن يعزل نفسه عنها، وهي: إدراك الحِكَم التفصيليَّة للعبادات الشرعيَّة الَّتي ينظر إليها الغزالي على أنَّها ـ بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدَّرة من جهة الأنبياء ـ أدوية ربَّانيَّة «لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء، الَّذين أدركوا تلك الخواصَّ، بنور النبوَّة، لا ببضاعة العقل».

فلا يستطيع العقل أن يدرك لماذا كان السجود في الصلاة ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر، ونحو ذلك. فهذا من قبيل الخواصِّ الَّتي لا يُطَّلع عليها إلَّا بنور النبوَّة.

قال: «ولقد تحامق وتجاهل جدًّا من أراد أنْ يستنبط بطريق العقل لها حكمة، أو ظنَّ أنَّها ذُكرَت على الاتفاق، لا عن سر إلٰهي فيها، يقتضيها بطريق الخاصيَّة»[٢].

وما عدا ذلك فإنَّ العقل يصول ويجول، في استنباط الأحكام من النصوص الَّتي تختلف فيها الأفهام، وتتفاوت العقول، أو ممَّا لا نصَّ فيه عن طريق القياس وغيره من أدوات الاجتهاد.

(١) المستصفى صـ ٤.

(٢) المنقذ من الضلال صـ ١٥٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقارئ فقه الغزالي، أو أصوله، أو كلامه، أو تصوفه، أو منطقه؛ يرى أنه لم يتخلَّ عن العقل يومًا، ولكنَّه العقل الَّذي يعرف حدوده، ولا يحرم نفسه من نور أعظم منه، وهو نور الوحي الإلٰهي، الَّذي قطع العقل نفسه بثبوته.

بهذا ظل الغزالي وفيًّا للعقل، مؤمنًا بمهمته في الدين، كمهمته في الدنيا، داعيًا إلى الجمع بين مقرَّرات الشـرائع، وموجِبات العقول، أو بين الشـرع المنقول والحقِّ المعقول، مع الاعتراف بـأنَّ لكلٍّ منهما سلطانًا لا يتعدَّاه.

وبهذا نتبيَّن أنَّ الغزالي بهجمته على الفلسـفة الإلٰهيَّة التقليديَّة، لم يتنكَّر للعقل، ولا حرَم المسـلمين من فلسفة حقيقيَّة أصيلة حين تصدَّى لنقض الفلسـفة اليونانيَّة، في صورتها العربيَّة أو الإسلاميَّة كما تُسمَّى، والَّذين يقولون هذا غالطون أو مغالطون.

فما كانت فلسفة الفارابي وابن سينا أو فلسفة «إخوان الصفا» فلسفة إسلاميَّة حقًّا، كما يقول الباكون أو المتباكون عليها.

إنَّ منابعها لم تكن هي الإسـلام، ومنطلقها لم يكن هو الإسـلام، ومقاييسها لم تُبْنَ على الإسلام، فكيف تنسب إليه، وتحسب عليه؟

كل ما يصلها بالإسلام أنَّها إنتاج بعض أبنائه، وأنَّها نشأت في أرضه، وكُتِبت بلغته، أعني لغة كتابه، وهي العربيَّة.

ولا نريد أنْ نصل إلى حدِّ القول بأنَّها الفلسـفة اليونانيَّة كُتِبَت بلغة عربيَّة، كما قال قائلون، ففي ذلك تحامل وتجنٍّ ظاهر.

إنَّمـا نقول: إنَّ جوهرهـا تمثَّل في محـاولات التوفيق بيـن الدِّين والفلسفة، أو بين الحكمة والشريعة، كما يُعبِّر ابن رشد، كما نجد ذلك

QaradawiBooks.com

في محـــاولات الفارابي وابن ســـينا، الَّتي هدفت إلـــى الجمع بين آراء المدرسة المشَّـــائيَّة المصبوغة بالأفلاطونيَّة الجديدة ـ كما نقلها تراجمة السّـــريان وغيرهم ـ وبين معتقدات الإســـلام وتصوُّراته الكُلِّيَّة للألوهيَّة والنبوَّة والجزاء، فـــإذا تعارضت معطيـــات الدِّين ومعطيات الفلســـفة، اعتمدت الفلسفةَ، وتؤوِّل الدِّين! فالفلســـفة عندهم أصل، والدِّين تابع، وما جاء به محمَّد رســـول الله ﷺ يجـــب أن يُفهم في ضـــوء ما جاء به أرسطو «المُعلِّم الأول» عند القوم!

وأدنى من ذلك محاولات «إخـــوان الصفا» الَّتـــي كانت أقرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق، كما يقول الدكتور حمودة غرابة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «ابن سينا بين الدين والفلسفة»[1].

الغزالي الفيلسوف:

والحقُّ أنَّ الغزالي في «إحيائه» و«منقذه» و«مســـتصفاه» وبعض كتبه الأخرى ـ على ما فيها من مآخذ ـ أقرب إلى تمثيل «الفلسفة الإسلاميَّة» من الممثِّلين الرسميِّين التاريخيِّين لها.

كما أنَّه في كثير مـــن نظراته النفســـيَّة والاجتماعيَّـــة والتربويَّة يُعَدُّ صاحب فلســـفة متميِّزة، هي عند التحقيـــق أهمُّ من الفلســـفة التقليديَّة المستمدَّة في أصولها من الإغريق.

إنَّ الغزالي بهدمه الفلسفة قد غدا فيلسوفًا، ولكن بمعيارٍ آخر، ومن منطلق آخر، إنَّه لم يعد تابعًا، بل أصيلًا مســـتقلًّا، إنَّه فيلسوف، وإن لم يُرِدْ أن يكون فيلسوفًا، ولعلَّه لو ســـئل ـ كما قال الأستاذ العقَّاد ـ: أأنت فيلسوف؟ لأنكر ذلك.

(١) ابن سينا بين الدين والفلسفة صـ ٣٥، نشر دار الطباعة والنشر الإسلامية، مصر.

QaradawiBooks.com

وهذا أمر اعترف به كثيرون في الشرق والغرب، حتَّى قال الفيلسوف الشهير «رينان»: «لم تنتج الفلسفة العربيَّة فكرًا مبتَكرًا كالغزالي»[١]. يريد أنَّ «الفلاسفة الإسلاميِّين» قبله وبعده كانوا أتباعًا للفلسفة الأرسطيَّة أو الأفلاطونيَّة الحديثة، وأنَّ الغزالي وحده هو الَّذي ثار عليها، واتَّخذ له نهجًا خاصًّا.

وقد رأى كثير من علماء المسلمين قديمًا أنَّ الغزالي رغم حربه للفلسفة لم يزل متأثِّرًا بها، حتَّى قال تلميذه القاضي ابن العربي: «شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، ثمَّ أراد أنْ يتقيَّأهم، فما استطاع»[٢]!

وحسْبنا أن أحد دعائم الفلسفة وهو«المنطق»، قد تبنَّاه الغزالي ودافع عنه، وأضفى عليه من ثقافته الإسلاميَّة، وكتب فيه عدَّة كتب، مثل: «معيار العلم» و«مَحَكّ النظر» و«القسطاس المستقيم»، وقد أعلن أن تعلُّمه فرض كفاية، كما جعله مقياسًا لصحة العلوم كلها، حتَّى علوم الدين نفسها، وذهب إلى أن من فقد هذا المعيار لا ثقة بعلمه، حتَّى جلب ذلك عليه سُخط كثير من علماء المسلمين من مختلف المدارس والعقليَّات، من ابن الصلاح، إلى ابن تيمية الناقد المنهجي الموضوعي للمنطق الأرسطي.

وإذا كان صحيحًا ما نادى به شيخ مؤرِّخي الفلسفة الإسلاميَّة في العصر الحديث ـ وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ من اعتبار «علم

(١) دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها لعبده الشمالي صـ ٥٥٣، نشر دار صادر، بيروت، ط ٥، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٢٧/١٩)، تحقيق مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

أصول الفقه» أحد أركان هذه الفلسفة، بل في مقدمتها ـ وهو صحيح ومسلم به الآن من دارسي الفلسفة ـ فالغزالي ولا شكَّ أحد أعمدة هذا العلم ومراجعه، وحسْبنا فيه «المستصفى».

ويحق ما قاله الأستاذ العقَّاد رَحِمَهُ اللَّهُ عن «فلسفة الغزالي» في محاضرته بالأزهر: لو سئل الغزالي: هل أنت فيلسوف؟ لأنكر انتسابه إلى القوم الَّذين يُبطل حُجَّتهم، ويدحض آراءهم، ويقضي على أقوالهم بالتهافت، وهو الضعف الَّذي لا يقوى المُنْصِف به على التماسك والثبوت.

لكنَّنا ننظر إلى أقوال الغزاليِّ في مناقشته للفلاسفة، فنعلم أنَّه ناقش الفلسفة بالفلسفة، وحطَّم السلاح بسلاح مثله، بيد أنَّه أنفذ وأمضى، فهو على هذا فيلسوفٌ أقدر من الفلاسفة الَّذين أبطل حجتهم.

والواقع أن حُجَّة الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لم تكمل له أداة قطُّ كما كملت له أداة الفلسفة، فهو عالم، وهو فقيه، وهو متكلِّم، وهو صوفيٌّ ولا مِراء، ولكن هذه المطالب لا تستغرق كلَّ ملكاته ووسائله إلى المعرفة، قد يبلغ فيها غايتها ببعض تلك الملكات والوسائل، وتبقى له بعدها مَلَكة لا ضرورة لها في غير الفلسفة وحدها، وأوجز ما يقال عنها بكلمة واحدة: أنَّها هي مَلَكة التجريد.

ويرى العقَّاد أن تصوُّف الغزالي، الَّذي قطع معه علائق قلبه بالدنيا، وهرب به من الشواغل والعلائق، وأقبل بكُنْه همَّته على الله، ووصل معه إلى حالة يستوي فيها عند القلب وجود كلِّ شيء في هذا الكون وعدمه؛ هذا التصوُّف قد منحه قدرة على التفكير الفلسفيِّ الحُرِّ، والتأمُّل العقلي العميق، الَّذي لا يُتاح مثله لمن يُفَكِّر وهو رهن محابس المادِّيَّات والشهوات.

QaradawiBooks.com

وبهذه القدرة على التجرُّد من النفس وعاداتها ومألوفاتها؛ أصبح الغزالي أقدر على «التجرُّد الذهني» من المتصوف الَّذي لا يشغل فكره باستقصاء البحث، ومن الفيلسوف الَّذي لا يروض نفسه على الفرار من تحكم «الذاتيَّة» ولوازم الأشياء الَّتي لا تفارقها في حِسِّه وفي إدراكه، فلا جرم، كانت السليقة الصوفيَّة فيه أداةً يغلب بها الفيلسوف الَّذي لا تصوُّف عنده، وكان التفكير المنتظم عنده أداةً تُعِينه على الفهم حيث يقنع المتصوف بالتسليم ويستريح إليه.

ويختم العقَّاد محاضرته عن الغزالي بهذا التساؤل: هل كان إمامنا رَحِمَهُ اللَّهُ فيلسوفًا أم متصوِّفًا؟[1].

ويُجيب بقوله:

«إنَّه كان قدوةً للفلاسفة، ونموذجًا من نماذج التفكير الرفيع، نتعلَّم منه أنَّ الفلسفةَ أداةٌ لا تتمُّ بغير قِسْط من التصوُّف؛ لأنَّ التصوُّف قدرة على انتزاع النفس من المألوف، وتلك قدرة لا يستغني عنها الفيلسوف المفكِّر، ولا الفيلسوف الحكيم».

الغزالي والباطنيَّة:

وكان للغزالي ـ بجوار دوره في نقض الفلسفة ـ دور آخر في الرد على فرقة «الباطنيَّة» الَّتي تدرعت بالفلسفة، وظهرت في مظهر ديني وسياسي، فكانت ـ كما يقول الأستاذ الندوي ـ أشد خطرًا على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيدًا عن الشعب والجمهور، وكانت ـ كما يصفها الأستاذ أحمد أمين ـ كالسفارات

(١) محاضرة فلسفة الغزالي ألقاها العقاد في قاعة المحاضرات بالأزهر في (١٧) رمضان ١٣٧٩هـ.

QaradawiBooks.com

الأجنبيَّة، لا شأن لها بالسياسة الداخليَّة، والشؤون الاجتماعيَّة، ولا صلة لها بجمهور الناس[١].

والباطنيَّة ـ كما ذكر الغزالي ومِن بعده ابن الجوزي ـ قومٌ تَسَتَّروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرَّة، فمحصولُ قولِهم تعطيل الصانع، وإبطال النبوَّة والعبادات، وإنكار البعث، ولكنَّهم لا يظهرون هذا في أوَّل أمرهم، بل يزعمون أنَّ الله حقٌّ، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وأنَّ الدِّين صحيح، لكنَّهم يقولون: إنَّ للدِّين سرًّا وباطنًا غير ظاهره[٢].

وذكر ابن الجوزي السبب الباعث لهؤلاء على إنشاء هذه النِّحْلة، وبيَّن أن غرضهم هو هدم الإسلام، تحت ستار الدعوة إلى الإمام المعصوم، والأسرار الباطنة.

كما بيَّن حِيَلهم وطرائقهم في اجتذاب النَّاس إلى مذهبهم، كلٌّ حسَب ميوله واتجاهاته الفِكْريَّة والشُّعوريَّة والسُّلوكيَّة.

فمن كان مائلًا إلى الزهد دعَوْه إلى الأمانة والصدق وترك الشهوات، ومن كان مائلًا إلى الخلاعة، قرَّروا في نفسه أنَّ العبادة بَلَه، وأنَّ الورع حماقة، وإنَّما الفِطنة في اقتناص اللذات من هذه الدُّنيا الفانية[٣]. وهكذا يخاطبون كلَّ ذي مذهبٍ بما يليق به، إلى أن يقع في أحابيلهم، ويصبح رَهْنَ إشارتهم.

---

(١) رجال الفكر والدعوة صـ ٢١٦.

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ ٩١، ٩٢، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

(٣) تلبيس إبليس صـ ٩٦.

QaradawiBooks.com

وخطر هذه الفرقة أنَّها تهدم من الداخل، وتعمل في الخفاء، وتُضمِر الكيد للإسلام، وتتظاهر إليه، وتُســاند كل مغِير على أمة الإسلام ودار الإسلام، وتجمع الأنصار، وتدرِّبهم على القتل والقتال، وفنِّ الاغتيال، وتستخدم سلاح الإرهاب بمهارة مُنْقَطِعة النَّظِير.

وقد انضمَّ إلى هذه الفرقة أعدادٌ من النَّاس بدوافع مختلفة.

منهم من دفعه إليهم بغضُ الدولة العبَّاســيَّة القائمة، وما يعانونه في ظلِّها من جور.

ومنهم من دفعه إليهم حبُّ آل البيــت والغضب لهم ممَّن ظلموهم، وكانت الباطنيَّة تنشر دعوتها باسمهم وتدعو إليهم.

ومنهم من اندفع وراء إشــباع الرغبات والتهام اللَّذَّات، الَّتي يُتيحها هؤلاء لأتباعهم، ويبرِّرونها باسم الدِّين كما يتصوَّرونه ويصوِّرنه.

ومنهم من دفعته الرغبة في الأســرار والغوامض والرموز، الَّتي يقوم عليها دِين هؤلاء، ولا سيَّما مع انتشار الحَرْفِيَّة والظاهريَّة عند الآخرين، والتمسُّك بالقشور، وإنكار كلِّ ما زاد عليها[١].

ومهما كانت الدوافع والأغراض، فقد كسبت الباطنيَّة شِيَعًا وأنصارًا يتحكَّم فيهم رؤساؤها، ويحرِّكونهم كالخاتم في الأصبع، ويستعملونهم في الإرهاب والتدمير، حتَّى اســتفحل أمرهم بأصبهان، وآل الأمر ـ كما قال ابن الجوزي ـ إلى أنَّهم كانوا يسرقون الإنسان، ويقتلونه، ويُلقونه في البئر، وكان الإنسان إذا دنا وقت العصر ولم يعُد إلى منزله أَيِسوا منه[٢].

(١) رجال الفكر والدعوة صـ ١٧٤.

(٢) تلبيس إبليــس صـ ٩٨. والمعنى أيس أهله مــن عودته، وتيقنوا بقتلــه، لكثرة من خطفهم الباطنية وقتلوهم بهذه الطريقة.

QaradawiBooks.com

وبهذا غدت الباطنيَّة مؤسَّسة سِرِّيَّة عسكريَّة خطرة، مغلَّفة بغلافٍ علمي فِكْري يخدع بريقه الأبصار، بدعوى أنَّهم أهل الأسرار، ولديهم وحدَهم الإمام المعصوم، الَّذي لا يصلُح العالَم ولا تستقيم الحياةُ بدونه!

ولم يكن هناك أحقُّ ولا أقدرُ من الغزالي بالرد عليها، والكشف عن عوارها، وتفنيد دعاويها، ونقض مبانيها من قواعدها، وذلك لجمعه بين العلوم الشرعيَّة، والعلوم العقليَّة من الفلسفة والمنطق والكلام، وتبحُّره فيها جميعًا، ولهذا كتب عدة كتب في الرد عليهم على فترات مختلفة، منها «فضائح الباطنيَّة»، الَّذي أثنى عليه الإمام ابن تيمية على الرغم من نقده للغزالي في مواضع متعدِّدة، ونقل منه ابن الجوزي وغيره.

وقد قال فيهم كلمته الَّتي سارت مسير الأمثال: «إنَّه مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكُفْر المَحْض»[1]. فهم يتستَّرون بالتشيُّع، وما هم من الشيعة في شيء، إنَّما هو قناع يُخْفُون وراءه كفرهم، وكيدهم لأهل الإسلام جميعًا: سُنِّيِّهم وشِيعِيِّهم.

وله في الردِّ عليهم أكثر من كتاب أشار إليه في «المنقذ من الضلال»، حين عرض لمذهبهم، وما فيه من فساد وتلبيس، وبيَّن أنه لا حاصل عندهم، ولا طائل تحت كلامهم، ولولا نصرة الصديق الجاهل للحقِّ، ما انتهت هذه البدعة الباطلة ـ مع ضعفها ـ إلى ما انتهت إليه.

فمن الكتب الَّتي أشار إليها:

كتاب «حُجَّة البيان»، ويُسَمَّى أحيانًا «حُجَّة الحقِّ».

(١) انظر: فضائح الباطنية للغزالي صـ ٣٧، تحقيق عبد الرحمن بدوي، نشر مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

QaradawiBooks.com

وكتاب «مفصل الخلاف».

وكتاب «الدَرَج المرقوم بالجداول».

فضلًا عن كتاب «القسطاس المستقيم»، وهو كتابٌ مستقلٌّ بنَفْسه، مقصوده: بيان ميزان العلوم، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم، لمن أحاط به.

وذُكِرَ له أيضًا كتاب «حُجَّةُ الحَقّ وقَواصِمُ الباطنيَّة»[1] و«مَوَاهم الباطنيَّة»، وكلُّها أسهمت في المعركة ضد هؤلاء الَّذين كانوا وبالًا على العباد والبلاد.

ومما يُذكر للغزالي هنا: استمراره على نقد هذه الطائفة، وكشف اللثام عن تناقض أفكارها، وفضائح أعمالها، وسوء نواياها، برغم ما كان معلومًا في ذلك الوقت أنَّ هذا النقد قد يكلِّفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير، الوزير نظام الملك، وفخر الملك بن نظام الملك أيضًا، وكان فخر الملك هو الَّذي ألحَّ على الغزالي في معاودة التدريس، فلم يجد بُدًّا أمام ضغطه من الإذعان.

وكان الباطنيَّة يهدِّدون كل من يرونه خطرًا عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام، في صورةِ طعنةٍ من خنجر، أو سمٍّ يُدَسُّ في طعام، أو غير ذلك من الأساليب الَّتي أتقنوها، ونفَّذوها بكلِّ دقَّة.

وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على شجاعة الغزالي في صدعه بالحقِّ، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة، ولن يُصيبه إلَّا ما كتب الله له.

(١) أشار إليه الغزالي في جواهر القرآن صـ ٣٩، تحقيق د. محمد رشيد رضا القباني، نشر دار إحياء العلوم، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

الغزالي يدعو إلى تحرير الفكر من العصبيَّة والتقليد:

وللغزالي مواقف أخرى، تُجلِّي شجاعته الأدبيَّة وقُوَّته في الحقِّ، وإنْ خالف المألوف والمشهور، فقد كان القرن الخامس الهجري ـ الَّذي ظهر فيه الغزالي ـ قد استقرَّت فيه مذاهب وأقوال في الكلام والفقه، والتصوُّف والسلوك.

واشتهرت أسماء كبيرة في كلِّ هذه المجالات، أصبح لها أتباعٌ ومُقَلِّدون، لا يقبلون من أحدٍ الخروج عليها في كثيرٍ أو قليل، بل لا يقبلون مجرَّد نقدها أو مناقشتها.

وبذلك رسخت العصبيَّة والتقليد للمذاهب والأقوال الموروثة، وغدت «حِمًى محرَّمًا» لا يجوز الاقتراب منه، وإلَّا هاج عليه الهائجون، ورمَوْه بالرماح والسهام من كلِّ جانب.

وكان النَّاس في حاجة إلى شخصيَّة كبيرة لها وزنُها، تحرِّك العقول الراكدة من سكونها، وتقاوم تحجُّر الفكر، وتدعو إلى التحرُّر من أغلال التقليد والعصبيَّة. شخصيَّة لا تُتَّهم بالقصور في علمها، ولا بالعجز في فكرها، ولا بالوهن في دِينها، ولا بالتفريط في سلوكها، ولا تُبالي بما يقول النَّاس عنها.

وكان الغزالي بمؤهلاته العلميَّة والعمليَّة، وبتاريخه في مقاومة الفلاسفة والباطنيَّة، وبكفاحه في سبيل الوصول إلى اليقين والفناء عن النفس في مرضاة الله؛ خليقًا أنْ يُسمع صوته، ويُلمس أثره، في هذا الميدان.

فكان هذا مأثرة أخرى من مآثر الغزالي، داخل دائرة الفكر الإسلامي: الدعوة إلى التحرُّر من العصبيَّة، والانطلاق من سجن التقليد، ورفض

QaradawiBooks.com

الجمود على آراء زيدٍ أو عمرٍو من البشر غير المعصومين، والانبهار بأسماء الكبار، مهما تكن منزلتهم في العلم، وشهرتهم في الدِّين.

وهذا ما ذكره وكرَّره في كثير من كتبه، وفي مواضعَ متعدِّدة منها، وقد ذكرنا بعض ما يشهد لذلك عندما تُحَدِّثنا عن موقفه من «العقل» بعد موقفه من «الفلسفة».

ولا بأس أنْ نؤكِّده هنا مرَّة أخرى، بذكر بعض «الركائز» الَّتي يعتمد عليها موقفه في مقاومة تيار التقليد الغالب، فهو:

أوَّلًا: يدعو للنظر إلى القول لا إلى قائله، والاعتداد بدليل الرأي لا بشُهرة صاحبه، وكم نقل وكرَّر حكمة الإمام علي كرم الله وجهه، الَّتي قالها لكُمَيْل بن زَيَاد: لا تعرف الحقَّ بالرجال، بل اعرف الحقَّ تعرف أهلَه[1].

وطالما قال ـ إذا اعتُرض عليه بأنَّه خالف المشاهير من قبله ـ: من عرف الحقَّ بالرجال، حار في متاهات الضلال[2]!

وهو بهذا يدعو إلى النظرة «الموضوعيَّة» للأشياء والأفكار، فلا نقبل الباطل لأنَّه جاءنا ممَّن نحبُّ، ولا نرفض الحقَّ لأنَّه جاءنا ممَّن نكره، فالمُبطِل لا يبعد أنْ ينطق بحقٍّ، والمُحِقُّ لا يبعد أنْ يتكلَّم بباطل. ولمَّا اعترض بعض النَّاس على كلماتٍ له في بعض تصانيفه في أسرار علوم الدِّين، زاعمين أنَّها من كلام «الأوائل» ـ يعنون الفلاسفة القدماء ـ ردَّ عليهم الغزالي بأنَّ بعضها من مولَّدات الخواطر،

(١) رواه البلاذري في أنساب الأشراف (٢٧٤/٢)، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

(٢) إحياء علوم الدين (٢٣/١).

QaradawiBooks.com

وبعضها يوجَد في الكتب الشـرعيَّة، وأكثرها موجـود معناه في كتب الصوفيَّة، ثمَّ قال:

«وهبْ أنَّها لم توجد في كُتبهم، فإذا كان الكلام معقولًا في نفسـه، مؤيَّدًا بالبرهـان، ولم يكنْ على مخالفة الكتاب والسُّـنَّة، فلِمَ ينبغي أنْ يُهجَر أو يُنكَر؟

فلو فتحنا هذا الباب، وتطرَّقنا إلى أن نهجر كلَّ حقٍّ سبق إليه خاطرٌ مُبْطِل لزمنـا أن نهجر كثيرًا من الحقِّ، ولزمنـا أن نهجر جملة آيات من القرآن، وأخبار الرسول، وحكايات السلف، وكلمات الحكماء والصوفيَّة؛ لأنَّ صاحـب كتاب «إخـوان الصفا» أوردهـا في كتابه، مستشـهدًا بها ومستدرجًا قلوب الحمقى بواسـطتها إلى باطله، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المُبْطِلون الحقَّ من أيدينا، بإيداعهم إيَّاه في كتبهم!

وأقل درجات العالِم: أن يتميز عن العاميِّ الغُمْر، فلا يعافُ العسل، وإن وجده في محجمة الحجَّام، ويتحقق أنَّ المحجمة لا تُغيِّر ذات العس...».

ثم يبيِّن الغزالي هنا أنَّ رفض الشـيء الحسن من أجل وعائه وظرفه ـ ومثله رفض الحق من أجل قائله ـ وهْمٌ باطـل، وهو غالب على أكثر الخلق، فمهما نسـبتَ الكلام وأسـندته إلى قائلٍ حسُـن فيه اعتقادهم، قبِلوه، وإن كان باطلًا، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم، ردُّوه، وإن كان حقًّا.

فأبدًا يعرفون الحقَّ بالرجـال، ولا يعرفون الرجال بالحقِّ، وهو غاية الضلال[1]!

(١) المنقذ من الضلال صـ ١٢٦، ١٢٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وثانيًا: يدعــو ويكرر الدعوة إلى التشــكيك في الأقــوال الموروثة والمذاهب المتبعــة ليزيل عنهــا ما أحيطت به ممَّا يشــبه «القداســة» أو«العصمة» ويضعها تحت مَحَكِّ الامتحان، ليُؤخذ منها ويُترك.

وقد مرَّ بنا قوله في «ميزان العمل»: «ولو لم يكن في هذه الألفاظ إلَّا ما يشكِّككك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعًا! فإن من لم يشكَّ لم ينظُرْ، ومن لم ينظر لم يبصُر، ومن لم يبصرْ بقي في العمى والضلال».

وقد طبَّق الغزالي بنفســه هذا المنهج، فبحــثَ وناقش، وأخذَ وردَّ، وكانت له أفكاره الخاصَّة، ومواقفه المستقلَّة، الَّتي خالف فيها مَنْ قَبْله.

خالف الأشعري في بعض مسائل الكلام.

وخالف إمامه الشــافعي في بعض مســائل الفقه، كما نرى ذلك في «الإحياء» في مســألة «المياه» الَّتي قال: كنــتُ أودُّ أنْ يكون مذهبه فيها كمذهب مالك، وأيَّد مذهب مالك بسبعة أدلَّة[1].

وكذلك أيَّد مذهب أبي حنيفة في جواز بيــع المعاطاة دون إيجابٍ وقبولٍ في غير النفائس[2].

وخالف المتصوِّفة في شطحاتهم وتهويماتهم غير المنضبطة بالشرع ولا العقل.

فقد أنكر في «الإحياء» الدعاويَ الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المُغنــي عن الأعمال الظاهرة، حتَّــى ينتهي بقوم إلى دعــوى الاتِّحاد، وارتفــاع الحجاب، والمشــاهدة بالرؤية، والمشــافهة

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١٢٩/١).
(٢) المصدر السابق (٦٧/٢).

QaradawiBooks.com

بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبَّهون فيه بالحسن بن منصور الحَلَّاج، الَّذي صُلِب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحقُّ! فهذا ومثله ممَّا قد استطار في البلاد شرره، وعَظُم في العوامِّ ضَرَرُه، حتَّى من نطق بشيءٍ منه، فقتلُه أفضلُ في دِينِ الله من إحياءِ عَشَرة[1]!

وكانت مخالفته للأشعريِّ ممَّا أشار حوله غبارًا كثيفًا، حتَّى اتُّهم بالزَّيغ، بل بالكفر، حيث طعن عليه طائفة «من الحَسَدة» بأن في بعض كتبه ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدِّمين، والمشايخ المتكلِّمين، وأنَّ العدول عن مذهب الأشعري ـ ولو في قِيدِ شبر ـ كفر! ومباينتُه ـ ولو في شيءٍ نزْر ـ ضلالٌ وخُسْر!

وقد واجه هذه الحملة العنيفة بتصنيف كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة». وكان ممَّا قاله فيه مخاطبًا صاحبه ومريده الَّذي وجَّه إليه رسالته هذه:

«فخاطبْ نفسَك وصاحبَك، وطالبه بحدِّ الكُفر، فإنْ زعم أنَّ حدَّ الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي أو غيرهم، فاعلمْ أنَّه غِرٌّ بَلِيد، قد قيَّده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيِّع بإصلاحه الزمان! وناهيك حُجَّةً في إفحامه مقابلةُ دعواه بدعوى خصومه، إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلِّدين المخالفين له فرقًا وفصلًا، ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعري، ويزعم أنَّ مخالفته في كلِّ ما ورد وصدر كُفر من الكُفر الجَلِيِّ، فاسأله: من أين ثبت له كون الحقِّ وقْفٌ عليه، حتَّى قضى بكفر

(١) إحياء علوم الدين (٣٦/١).

QaradawiBooks.com

الباقِلَّاني، إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى، وزعم أنَّه ليس هو وصفًا لله تعالى زائـدًا على الذات؟ ولِمَ صـار الباقلَّاني أولـى بالكفر لمخالفته الأشعري من الأشـعري لمخالفته الباقِلَّاني؟! ولِمَ صار الحقُّ وقْفًا على أحدهمـا دون الثاني؟ أكان ذلك لأجل السَّـبْق في الزمان؟ فقد سـبق الأشعريَّ غيرُه من المعتزلة، فليكن الحقُّ للسابق عليه! أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟ فبأيِّ ميزانٍ ومكيالٍ قَدَّر درجات الفضل، حتَّى لاح له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلَّده؟ فإن رخَّص للباقلاني في مخالفته، فلِمَ حجَّـر على غيره؟ وما الفرق بين الباقلَّاني والكرَابِيسـي والقَلانسي وغيرهم؟! وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة؟»[1].

وعلى هذا النحو من القوَّة والتدفُّق البصير، القائم على النظر العلمي الخالص، يناقش الغزالي المعظِّمين لأقوال السابقين، المنكرين لكلِّ من خالفهم في نَقِيرٍ أو قِطْمِير، وفي هذا السياق يقوله لصاحبه:

«ولعلَّكَ ـ إنْ انصفتَ ـ علمتَ أنَّ من جَعْلِ الحقِّ وقفًا على واحدٍ من النُّظَّار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب، أمَّا الكفر، فلأنَّه نزَّله منزلةَ المعصوم من الزلل، الَّذي لا يثبت الإيمان إلَّا بموافقته، ولا يلزم الكفر إلَّا بمُخالفته، وأمَّا التناقض، فهو أنَّ كلَّ واحدٍ من النُّظَّار يوجب النظر، وألَّا ترى في نظرك إلَّا ما رأيتَ، وكلّ ما رأيتَه حُجَّة، وأيُّ فَرْقٍ بين من يقول: قلِّدْني فـي مجرَّد مذهبي، وبيـن من يقول: قلِّدنـي في مذهبي ودليلي جميعًا، وهل هذا إلَّا التناقض؟»[2].

(١) فيصـل التفرقة بين الإسـلام والزندقة للغزالـي صـ ١٩ ـ ٢١، تحقيق محمـود بيجو، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) المصدر السابق صـ ٢٢، ٢٣.

QaradawiBooks.com

وثالثًا: يحاول أن يضع «معايير» ثابتة، لتقويم الفكر، وتقويم السلوك، ليرجع إليها المتجادلون ويحتكم إليها المختلفون.

وفي هذا وضع جملة من الكتب تدلُّ عناوينها على مضمونها، مثل «معيار العلم» و«القسطاس المستقيم» و«محكّ النظر» و«ميزان العمل».

ولعلَّ هذا كان وراء اهتمامه بعلم «المنطق»، واعتباره مقدمة للعلوم كلها، وإيجاب تعلمه على سبيل الكفاية! لأنَّه يراه الآلة القانونيَّة الَّتي تعصم مراعاتها الذهن عن الزلل في الفكر.

والمقصود هنا أنَّه كان معنيًّا بوضع «المعيار» أو«الميزان» الَّذي يمكن بواسطته تقويم الأقوال والمذاهب، وأدلَّة كلٍّ منها، وهو يزعم أنَّه بذلك مستطيعٌ أنْ يردَّ النَّاس إلى الحقِّ لو أصغوا إليه، واحتكموا إلى ميزانه، كما أشار إلى ذلك في مناقشته للباطنيَّة في «المنقذ من الضلال».

الغزالي يقاوم موجةَ الغُلُوِّ في التكفير:

ومن مآثر الغزالي الَّتي تُسَجِّل في ديوان حسناته وما أكثرها: وقوفه ضدّ تيار «الغلوّ في التكفير» الَّذي كان يسود مناخ الفِرَق الإسلاميَّة في عصره، وقبل عصره، فكلُّ فرقة تكفِّر من يخالفها في الرأي، وتعتقده مكذِّبًا لله ولرسوله، ومعنى هذا إهدار دمه وماله، واعتقاد استحقاقه الخلود في النار!

ولكنَّ الغزالي عارض هذا الإسراف بقُوَّة، وأوضح ما يكون ذلك في كتابيه: «الاقتصاد في الاعتقاد» و«فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة».

نقرأ قوله في «الاقتصاد»:

QaradawiBooks.com

«والَّذي ينبغي أنْ يميل المحصِّل إليه: الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلًا، فإنَّ استباحة الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلة، المُصَرِّحين بقول: «لا إلٰه إلَّا الله، محمَّد رسول الله» خطأ، والخطأ في ترك ألف كافرٍ في الحياة أهون من الخطأ في سفك مِحْجَمةٍ من دمِ مسلم، وقد قال رسول الله ﷺ «**أُمِرْتُ أن أقاتلَ النَّاس حتَّى يقولوا: لا إلٰه إلَّا الله محمَّد رسول الله. فإذا قالوها فقد عصموا مِنِّي دماءهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّها**»[(١)].

إلى أن قال:

«فلم يثبت لنا أنَّ الخطأ في التأويل موجب للتكفير، فلا بدَّ من دليل عليه، وثبت أنَّ العصمة مستفادة من قول: «لا إلٰه إلَّا الله» قطعًا، فلا يدفع ذلك إلَّا بقاطع، وهذا القدر كافٍ في التنبيه على أنَّ إسراف من بالغ في التكفير ليس عن برهان، فإنَّ البرهان إمَّا أصل، أو قياسٌ على أصلٍ، والأصل هو التكذيب الصريح، ومن ليس بمكذِّب فليس في معنى الكذب أصلًا، فيبقى تحت عموم العصمة بكلمة الشهادة»[(٢)].

ويعود لهذا الموضوع في «فيصل التفرقة»، فيوصد الباب في وجه الغلاة في «التكفير» بمجرَّد التأويل.

كما شدَّد النكير على المتعصِّبين من المُتَكَلِّمين الَّذين فرضوا على عوامِّ المسلمين أن يعرفوا العقائد الدينيَّة على طريقة علماء «الكلام»، ومن لم يعرفها بأدلَّتِهم فهو في نظرهم كافر.

---

(١) الاقتصاد صـ ١٣٥. والحديث متَّفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٩)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) الاقتصاد صـ ١٣٦.

QaradawiBooks.com

يقول الغزاليُّ مُنكِرًا عليهم:

«من أشـــدِّ النَّاس غلوًّا وإســـرافًا: طائفة من المتكلِّميـــن كفَّروا عوامَّ المسلمين، وزعموا: أنَّ من لا يعرف «الكلام» معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعيَّة بأدلَّتنا الَّتي حرَّرناها، فهو كافر!

فهؤلاء ضيَّقوا رحمة الله الواســـعة على عباده ـ أوَّلًا ـ وجعلوا الجنَّة وقفًا على شرذمةٍ يسيرةٍ من المتكلِّمين.

ثمَّ جَهِلوا ما تواتر من السُّنَّة ـ ثانيًا ـ إذ ظهر لهم في عهدِ رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضي الله عنهم، حكمهم بإســـلام طوائفَ من أجلاف العرب، كانوا مشـــغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه»[1].

ثم بيَّن أنَّ مدرك الإيمان ليس هو أدلَّـــة المُتَكَلِّمين وترتيبها، بل هو نورٌ يقذفُه الله فـــي القلب، تارة ببيِّنة من الباطـــن لا يُمكنه التعبير عنها، وتارةً بمشاهدة حال رجل متديِّن يسري نورُه إليه عند صحبته ومشاهدته، وتارةً بقرينة حال، ونحو ذلك.

بل ربَّما اتهُّم هنا بالمبالغة في الدفـــاع عن الطوائف المخالفة لأهل السُّنَّة، استمع إليه يقول:

«لعلَّك تشـــتهي أنْ تعرف حدَّ الكفـــر، وإنِّي أعطيـــك علامةً صحيحة تطردها وتعكسها لتتخذها نظرَك، وترعوي بسببها من تكفير الفرق، وتطويل اللسان في أهل الإســـلام، وإن اختلفت طرقهم، ما داموا مُتمسِّكين بقول: لا إلٰه إلَّا الله، محمَّد رسول الله، صادقين بها، غير مناقضين لها، فأقول:

(١) فيصل التفرقة صـ ٧٥.

QaradawiBooks.com

الكفر هو تكذيب الرسول ﷺ في شيءٍ ممَّا جاء به، والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به»[١].

«واعلمْ أنَّ هذا الَّذي ذكرناه، مع ظهوره، تحته غَوْر، بل تحته كلُّ الغَوْر؛ لأنَّ كلَّ فِرْقة تكفِّر مخالفها، وتنسبه إلى تكذيب الرسول ﷺ، فالحنبليُّ يكذِّب الأشعريَّ، زاعمًا أنَّه كذَّب الرسولَ في إثبات «الفوق» لله تعالى في الاستواء على العرش، والأشعري يُكَفِّره، زاعمًا أنَّه مَشَبِّه، وكذَّب الرسولَ في أنَّه ليس كمثلِه شيءٌ.

والأشعريُّ يُكَذِّب المعتزليَّ، زاعمًا أنَّه كذَّب الرسولَ في جواز رؤية الله تعالى، وفي إثبات العلم والقدرة والصفات له.

والمعتزليُّ يُكفِّرُ الأشعريَّ، زاعمًا أنَّ إثبات الصفات تكثير للقدماء، وتكذيب للرسول في التوحيد.

ولا يُنجيك من هذه الورطة إلَّا أن تعرف حدَّ «التكذيب» و«التصديق» وحقيقتهما، فينكشف لك غلوُّ هذه الفِرَق وإسرافها في تكفير بعضها بعضًا.

قالوا: إنَّ الإيمان إنَّما يتطرَّق إلى الخبر، بل إلى المُخْبِر، وحقيقته الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده، إلَّا أنَّ للوجود خمسَ مراتب، ولأجل الغفلة عنها نسبت كلُّ فرقةٍ مخالِفَها إلى التكذيب.

فإنَّ الوجود: ذاتيٌّ، وحِسِّيٌّ، وخياليٌّ، وعقليٌّ، وشَبَهيٌّ.

فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة، فليس بمكذِّب على الإطلاق.

(١) فيصل التفرقة صـ ٢٥.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أمَّا الوجــود الذاتي: فهو الوجــود الحقيقي الثابــت خارج الحسِّ والعقل.

وأمَّا الوجود الحِسِّــي: فهو ما يتمثَّل في القوَّة الباصرة من العَين ممَّا لا وجود له خارج العين، وذلك كما يشاهد النائم.

وأمَّا الوجودُ الخياليُّ: فهو صورة هذه المحسوســات إذا غابت عن حسِّك.

وأمَّا الوجودُ العقلــيُّ: فهو أنْ يكون للشــيء رُوح وحقيقة ومعنى، فيتلقَّى العقل حقيقةَ معنــاه، دون أنْ يثبت صورته في خيال أو حِسٍّ، أو خارج كاليد مثلًا، فإنَّ لها صورةً محسوســة ومُتَخَيَّلــة، ولها معنى هو حقيقتها، وهو القُدرة على البطش.

والقدرة على البطش هي اليد العقليَّة.

وأمَّا الوجود الشَّبَهي: فهو ألَّا يكون الشيء نفسه موجودًا، لا بصورته ولا بحقيقتــه، لا في الخارج، ولا في الحسِّ، ولا فــي الخيال، ولا في العقل، ولكن يكون الوجود شــيئًا آخر يشــبهه، في خاصَّة من خواصِّه، وصفة من صفاته...»[1].

والغزالي يبدو هنا ـ بالنظر إلى المخالِفين ـ محاميًا، أكثر منه قاضيًا حتَّى اعتبر الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول به وجودًا خياليًّا! أو عقليًّا أو شــبهيًّا؛ كافيًا في نفي التكذيب والكفر عمَّن قــال به. وهذه غاية في التسامح ربَّما جره إلى أنْ يتَّهم هنا بالتفريط.

(١) فيصل التفرقة صـ ٢٧ ـ ٣١ بتصرف.

QaradawiBooks.com

يبدو أنَّ ممَّا يُذْكَرُ للغزاليِّ هنا: أنَّه مع هذا التسامح الرحْب والتماس المخارج المعقولة للمخالفين، لإبقائهم في دائرة الإسلام؛ لم يفرِّط في حماية حقائق الدِّين من المقــولات الَّتي تمسُّ جوهره، وتجافي المعلوم بالتواتر من عقيدته وشــريعته، من أقاويل الفلاســفة أو من شــطحات الصوفيَّة، حيث لم يجد وجهًا لتأويــل كلامهم بأحد وجوه التأويل الَّتي ذكرها، حتَّى قال عن بعض المتصوِّفة الَّذين زعموا أنَّهم وصلوا بالرياضة الرُّوحيَّة إلى حالٍ تُســقط عنهم فرائض الدِّين وشــعائر عبادته: إنَّ قتْلَ الواحد منهم أفضلُ من قتل مائة كافرٍ أصليٍّ؛ لأنَّ الكافر مفضوحٌ بكفره، وهذا يهدم الشرع من الشرع[1]!

رسالة الغزالي في تجديد الدين وإحيائه:

كان الغزالي يشعر في أعماقه أنَّ الأقدار العليا ناطت به مهمَّة تجديد الدِّين وإحيائه على رأس المائة الخامسة.

فلم يعد يكفي عمله «الهَدْمي» في إنزال الفلسفة من عرش غُرورها، وإيقاف الفرق المنشــقَّة عند حدِّهــا، بل لا بدَّ من عمــل «بِنائي» آخر، لحساب الإسلام، بعد إزالة أنقاض الجاهليَّة.

كان هذا العمل البنائي يتمثَّل في أمرين:

١ ـ إحياء العلوم الدينيَّة الحقيقيَّة، خلفًا للعلوم الفلسفيَّة والمبتدعة.

٢ ـ إحياء الشــعور الديني، الَّــذي يدفع إلى العمــل بالدِّين، عملًا خالصًا غير مغشوشٍ ولا مدخول.

(١) فيصل التفرقة صـ ٦٥.

QaradawiBooks.com

ومن قرأ مقدّمة «الإحياء» يلمس هذا الوعي أو الإحساس الداخلي عند الغزالي.

فقد رأى علم الدِّين الحقيقي مندرسًا، ومنار الهدى في أقطار الأرض مُنْطَمِسًا، ولم يبقَ إلَّا علم الفتوى في الأحكام الظاهرة، أو الجدل للمباهاة والغلبة والإفحام، أو السجع المزخرف يَتوسَّل به الواعظ إلى استدراج العوامِّ.

«فأمَّا علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح ممَّا سمَّاه الله في كتابه فقهًا وحكمة وعلمًا وضياء ونورًا وهداية ورشدًا، فقد أصبح من بين الخلق مطويًّا وصار نسيًا منسيًّا.

ولما كان هذا ثَلْمًا في الدين مُلِمًّا، وخطبًا مدلهمًّا، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهمًّا، إحياءً لعلوم الدين، وكشفًا عن مناهج الأئمَّة المتقدِّمين» إلخ[1].

كان أكبر همِّ الغزالي لإحياء علم الدِّين والعمل به: التركيز على «علم طريق الآخرة»، وما يحتاج إليه سالكه من ثقافةٍ وخُلُقٍ وعملٍ.

والعجيب أنَّه ـ وهو الفقيه الكبير ـ سلك الفقه في منظومة علوم الدنيا، وإن كان له ارتباطٌ بعلم الدِّين[2].

كما أنَّه شرع يُخَفِّف من غلواء علم الكلام وأهميَّته، ولا يراه علمًا أساسيًّا من علوم الدِّين، بل يراه علم حراسة الدِّين من تشويش المُبتدِعة، فالحاجة إليه بالنسبة للدين كالحاجة إلى الحُرَّاس والخفراء في طريق

(١) إحياء علوم الدين (٢/١).
(٢) إحياء علوم الدين (١٧/١).

QaradawiBooks.com

الحجِّ بالنسبة للحجِّ، لوجود قُطَّاع الطريق، فلو عُدِموا ما كان لهؤلاء الحرَّاس عملٌ ولا مكانٌ.

فليس هو عملًا مطلوبًا لذاته لتثقيف المسلم، بل هو مطلوب للدفاع عن العقيدة في مواجهة شبهات المدارس العقليَّة، والبدع المُستحدَثة.

وقد أنكر على علماء عصره ومَن قبلهم تكليفَهم عوامَّ المسلمين معرفة العقائد بأدلَّة المتكلِّمين، وهو تكليف بما يتعذَّر، ثمَّ هو تكليف بما لا ينفع، ويكفي هؤلاء أدلَّة القرآن بما فيها من يُسر ووُضوح، ومخاطبة للعقل وللقلب معًا.

يقول في «الإحياء»:

«اعلمْ أنَّ حاصل ما يشتمل عليه «علم الكلام» من الأدلَّة الَّتي يُنتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما، فهو: إمَّا مجادلة مذمومة وهي من البدع، وإمَّا مشاغبة بالتعلُّق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات الَّتي أكثرها تُرَّهات وهَذَيَانات، تزدريها الطِّباع، وتمجُّها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلَّق بالدين، ولم يكن شيء منه مألوفًا في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكُلِّيَّة من البدع. ولكن تغيَّر الآن حكمه، إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسُّنَّة، ونبغت لها جماعة لفَّقوا لها شُبَهًا، ورتَّبوا فيها كلامًا مؤلَّفًا، فصار المحذور ـ بحكم الضرورة ـ مأذونًا فيه، بل صار من فروض الكفايات، وهو القدر الَّذي يقابَل به المبتدِع، إذا قصد الدعوة على البدعة، وذلك على حدٌّ محدود...»[1].

(١) الإحياء (٢٢/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وذكر في كتابه الَّـذي ألَّفه في آواخر حياته «إلجـام العوام عن علم الكلام»، والَّذي مال فيه إلى مذهب السلف: «أن أدلَّة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسـان، وأدلة المتكلِّمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويسـتضرُّ به الأكثرون. بل أدلة القـرآن كالماء الَّذي ينتفـع به الصبي الرضيع، والرجل القوي، وسائر الأدلَّة كالأطعمة الَّتي ينتفع بها الأقوياء مرَّة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلًا»[1].

بل قال كلمتـه الجريئة ـ الَّتي أنكرها عليه المـازري وغيره ـ: «من مات ولم يعلم أنَّ الباري قديم، مات مسلمًا...»[2]!

يريـد أنَّ الصحابة وتابعيهم بإحسـان لم يكونوا يُلقِّنـون مثل هذه الاعتقادات لأبنائهم وتلاميذهم، ولم يكونوا يشترطونها لصحة الإسلام أو الإيمان. فمن مات وهو خالي الذهن عنها مات على الإسلام والفطرة.

الغزالي ينقد المجتمع ويكشف التديُّن المغشوش:

لقد أخذ الغزالي على عاتقه أنْ يبيِّن معالـم التديُّن الصحيح، الَّذي يأخذ بيد الإنسان على مرضاة الله تعالى، وسعادة الآخرة، الَّتي هي غاية الغايات. وأنْ يوضِّح طريق هذا التديُّن ومراحله وعقباته وقواطعه. كما أنَّ عليه أنْ يفضح التديُّن الزائف المدخـول، وإن طُلي بطلاء التقوى، وأن يكشـف عن أصناف هؤلاء الَّذين يحسـبون أنَّهم على شـيءٍ وهم في الحقيقة كاذبون.

(١) إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي صـ ٩٣، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج، نشر دار المنهاج للدراسات، ط١، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٧م.

(٢) انظر: طبقات الشافعية (٢٤٢/٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لقد غـــاص الغزالي في أغـــوار الأنفس، كما غـــاص في أعماق المجتمع، ورصد كثيرًا مـــن الظواهر الاجتماعيَّـــة والأخلاقيَّة، الَّتي نشأت عن سوء فهم حقيقة الدين، وعن خداع النفس وتلبيس إبليس عليها أنَّها عاملة به، سائرة على دربه، أو عن غلبة الشهوات الظاهرة والخَفِيَّة على النفس والسلوك، أو تأثير أصدقاء السوء، وعبيد الدنيا، أو غير ذلك.

وكان الغزالي فـــي نقده للأفراد والفئات الاجتماعيَّـــة المختلفة نافذ البصيرة وعميق النظرة، لم يقف عند الســـطح، بـــل اتَّجه إلى الأعماق، فعرف كيف يشخص الداء، ويصف الدواء.

نقد العلماء:

وممَّن ركَّز الغزالي عليهـــم نقده في كتبه، ولا ســـيَّما «الإحياء» في مواضع جمَّة منه: العلماء، ويعني بهم العلماء المنتسبين إلى الدِّين، وهم في الحقيقة «علماء الدنيا»!

وهو يحمِّلهم مســـؤوليَّة كبيرة في فســـاد الملوك والحكام، وفســـاد العوام، ويرى أنَّ الداء العضال فقْـــد الطبيب، والأطبَّاء هم العلماء، وهم أنفسهم قد مرضوا مرضًا شديدًا.

ونراه هنا يتمثَّل بقول الشاعر:

وَرَاعِي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئْبَ عَنْهَا فَكَيْفَ إِذَا الرُّعَاةُ لَهَـــا ذِئَابُ[1]؟!

(١) ذكره من غير نســـبة: الدميري في حياة الحيوان الكبرى (٥٠٤/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

وقول الآخر:

يَا مَعْشَــرَ الْقُــرَّاءِ يَا مِلْــحَ الْبَلَدْ مَا يُصْلِحُ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ فَسَدْ[1]؟!

وقد ذكر في «كتاب العلــم» بابًا بيَّن فيه العلامــات الفارقة بين علماء الآخرة وعلماء الدُّنيا، الَّذين سمَّاهم «علماء السوء»، وهي اثنتا عشرة علامة[2].

لقد نقد العلماءَ من أهل الفقه والكلام، لانشغالهم بعلم الظاهر عن علم الباطن، وبعمل الجوارح عن أعمال القلوب، حتَّى لو ســئل عن معنى شيء منها لتوقَّف فيه، ولو سئل عن الظهار واللعان ونحوها، لسرد عليك مجلَّدات من التفريعات الدقيقة، الَّتي تنقضي الدهور ولا يُحتاج إلى شيءٍ منها[3]!

وعاب الغزالي على علماء عصــره إهمالهم لبعض فروض الكفايات الَّتي لا يستغنى المجتمع المسلم عنها، مثل علم الطبِّ.

«فكم من بلدةٍ ليس فيها طبيبٌ إلَّا مــن أهل الذمَّة، ولا يجوز قبول شــهاداتهم فيما يتعلَّق بالأطبَّاء من أحكام الفقه، ثمَّ لا نرى أحدًا يشتغل به، ويتهاترون علــى الفقه، لا ســيَّما الخلافيَّات والجدليَّــات، والبلد مشحونٌ من الفقهاء. فليت شِعْري كيف يرخِّص فقهاء الدِّين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟!»[4].

(١) الإحياء (٦١/١).

(٢) انظر: الإحياء (٥٨/٣) وما بعدها.

والواقع أن حملة نقد العلماء تحت عنوان علماء السوء بدأت في القرن الثالث الهجري على يد المحاسبي والتستري (٢٨٣هـ)، وللأخير رسائل مســتقلة لهذا الغرض تعمُّ طوائف من العلماء، بل من الزهاد وبعض الصوفية والفقهاء، فالغزالي إنما عمَّق هذه الجملة ووسعها.

(٣) الإحياء (٢١/١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

ومن الدقائق الَّتي نبَّه الغزالي عليهـا هنا: تغيُّر معاني الكلمات القرآنيَّة والنبويَّـة عمَّا كانت عليه في عهد الصحابة ومن تبعهم بإحسـان إلى معانٍ اصطلاحيَّة أخرى، مثل كلمات الفقـه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة. فقد غدت كلمة «الفقه» عند الخلف تعني: معرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقـوف على دقائق عللها، واسـتكثار الـكلام فيها، وحفـظ المقالات المتعلِّقة بها. فمن كان أشدَّ تعمُّقًا فيها، وأكثر اشتغالًا بها، يقال هو الأفقه[١]!

وكان اسـم الفقه في العصر الأوَّل يطلق على علـم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومُفسدات الأعمال، وقوَّة الإحاطة بحقارة الدنيا، واستيلاء الخوف على القلب.

ويسـتدلُّ الغزالي لذلك بالقرآن والأحاديث وآثار السلف[٢]. وكلامه هنا في غاية النفاسة والأصالة.

ثم يحذر من الاشتغال بعلم «الخلافيَّات» الَّتي أُحدثت في الأعصار المتأخِّرة وأُبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف، قال: «فإيَّاك وأنْ تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السمِّ القاتل، فإنَّها الداء العُضـال الَّذي ردَّ الفقهاء كلُّهم إلى طلب المنافسـة والمباهاة».

ثم يقول: «فاقبلْ هذه النصيحة ممَّـن ضيَّع العمر فيه زمانًا، وزاد فيه على الأوَّلين تصنيفًا وتحقيقًا وجدلًا وبيانًا، ثمَّ ألهمه الله رشده، وأطلعه على عَيْبه، فهجره واشتغل بنفسه»[٣]!

(١) الإحياء (٣٢/١).

(٢) المصدر السابق (٣٢/١) وما بعدها.

(٣) الإحياء السابق (٤١/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وللغزالي توجيهات رائعة للوعَّاظ والقُصَّاص والمذكِّرين، يجب الانتفاع بها، فهو يحذر من القصص والحكايات المنحولة والمزوَّرة، ويراها بدعة في دين الله، وعلى الواعظ أنْ يرجع إلى القصص المحمودة، وما يشتمل عليه القرآن، ويصحُّ في الكتب الصحيحة من الأخبار.

قال: «ومن النَّاس من يستجيز وضع الحكايات المرغِّبة في الطاعات، ويزعم أنَّ قصده فيها دعوة الخلق إلى الحقِّ، فهذه من نزغات الشيطان، فإنَّ في الصدق مندوحة عن الكذب، وفيما ذكر الله ورسوله ﷺ غنيَّة عن الاختراع في الوعظ، فكيف وقد كره تكلُّف السجع، وعدَّ ذلك من التصنُّع؟

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه لابنه عمر ـ وقد سمعه يسجع ـ: هذا الَّذي يُبَغِّضك إليَّ! لا قضيت حاجتك أبدًا حتَّى تتوب! وقد كان جاءه في حاجة»[1].

ومن قرأ «الإحياء» وحده للغزالي، وجد فيه من النظرات العميقة والتحليلات الدقيقة في نقد المجتمع، وبيان نقاط الضعف فيه، وعوامل الفساد في شتَّى نواحيه، ما يشهد لهذا الإمام بأنَّه ـ برغم نزعته الصوفيَّة الزهديَّة ـ ناقدٌ اجتماعيٌّ من الطراز الأوَّل، كما أنَّه عالِم نفسيٌّ رفيع المقام.

والإحياء مليء بهذه النظرات والتحليلات الفاحصة الناقدة الموجِّهة، يجدها قارئه في «أرباعه» الأربعة، وفي كتبه الأربعين، ولكنَّه يجدها أوضح ما تكون في كتابه «ذمّ الغرور»، وهو العاشر من ربع «المهلكات».

(١) الإحياء (٢٤/١ ـ ٣٥)، وذم الغرور (٣٩٥/٣ ـ ٣٩٧). والأثر رواه هناد بن السري في الزهد (٥٥٦/٢)، ومعناه عند أحمد (١٥١٧)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره.

QaradawiBooks.com

وفيه ذكر أصنافًا من الَّذين أوبقهم الغرور، وهم لا يشعرون.

فذكر من هـؤلاء أرباب العلـم، وأرباب العبـادة والعمل، وأرباب التصوُّف، وأرباب الأموال، وآخرين من العوام، وذكر فرق المغترِّين من كلِّ صنف، وكيف خدعتهم أنفسـهم، أو زيَّنت لهم شـياطينهم سـوء أعمالهم، فرأَوْها حسنة، وقد أبدع في الوصف والتصوير هنا أيّما إبداع، كما أشار إلى العلاج الواجب الاتِّباع، ولعلَّ هذا الكتاب هو الَّذي أوحى إلى ابن الجوزي بتأليف كتابه «تلبيس إبليس».

نماذج رائعة من نقد الغزالي للتديُّن المغلوط:

وأكتفي هنا بذكر نموذجين من نماذج نقـده القوي العميق البصير، ليُرى منه مقدار فقهه في دِيـن الله، وفهمه لدنيا النـاس، وحرصه على إصلاحهم في ظواهرهم وبواطنهم.

نموذج من الإخلال بالترتيب الشرعي للأعمال:

النمـوذج الأوَّل من فرق المغتريـن من المتديِّنين مـن أهل العبادة والعمل يقول فيه:

«فمنهم فرقةٌ أهملوا الفرائض، واشـتغلوا بالفضائل والنوافل، وربَّما تعمَّقوا في الفضائل حتَّى خرجوا إلى العدوان والسَّـرَف، كالَّذي تغلب عليه الوسوسـة في الوضوء، فيبالـغ فيه، ولا يرضى المـاء المحكوم بطهارته فـي فتوى التشـريع، ويقدِّر الاحتمـالات البعيـدة قريبة في النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدَّر الاحتمالات القريبة بعيدة! وربَّما أكل الحرام المحـض، ولو انقلب هذا الاحتيـاط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسـيرة الصحابة، فقد توضَّأ عمر رضي الله عنه بماءٍ في جرَّة

QaradawiBooks.com

نصرانيَّة[١]. مع ظهور احتمال النجاسة، وكان ـ مع هذا ـ يدع أبوابًا من الحلال، مخافة من الوقوع في الحرام.

وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذَّة، ولا يشتدُّ حرصه على المبادرة بها في أوَّل الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «**ما تقرَّب المتقرِّبون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم**»[٢]، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور.

بل قد يتعيَّن في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورًا.

ونظائر ذلك أكثر من أنْ تُحصى، فإنَّ المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنَّما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: مَنْ أبرُّ يا رسول الله؟ قال: «**أمَّك**» قال: ثمَّ من؟ قال: «**أمَّك**» قال: ثمَّ من؟ قال: «**أمك**» قال: ثمَّ من؟ قال:

(١) رواه الشافعي في الأم (٢١/١)، وابن المنذر في الأوسط (٢٣٧)، وصحَّحه النووي في خلاصة الأحكام (٨٢/١)، عن أسلم.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة، بلفظ: «**ما تقرب إليَّ عبدي**».

QaradawiBooks.com

«**أباك**» قال: ثمَّ من؟ قال: «**أدناك فأدناك**»[١]. فينبغي أنْ يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإنْ استويا فبالأتقى والأورع.

وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحجِّ، فربَّما يحجُّ، وهو مغرورٌ، بل ينبغي أن يُقَدِّم حقَّهما على الحجِّ، وهذا من تقديم فرضٍ أهمَّ على فرضٍ هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت، والاشتغال بالوفاء بالوعد «حينئذ» معصية، وإن كان هو طاعة في نفسه.

وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور»[٢].

وهذا الَّذي ذكره الغزالي الفقيه في غاية الأهمِّيَّة، وما أحوج شباب الصحوة الإسلاميَّة إلى فقهه ووعيه، وطالما دعوتُ منذ مدة هؤلاء الشباب والجماعات الدينيَّة إلى ما سمَّيْته «فقه مراتب الأعمال» وإعطاء

(١) رواه أحمد (٢٠٠٢٨)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٥١٣٩)، والترمذي في البر والصلة (١٨٩٧)، وقال: حسن. عن معاوية بن حيدة.
والحديث متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٨) عن أبي هريرة، ولفظ البخاري: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، من أحقُّ الناس بحُسن صحابتي؟ قال: «**أُمُّك**» قال: ثُمَّ من؟ قال: «**ثُمَّ أُمُّك**» قال: ثُمَّ من؟ قال: «**ثُمَّ أُمُّك**» قال: ثُمَّ من؟ قال: «**ثُمَّ أبوك**».

(٢) الإحياء (٣/٤٠٠ ـ ٤٠٤).

QaradawiBooks.com

كل عمل «سعره» الشرعي، ومكانَه في سُلَّم المأمورات والمنهيَّات، ولم أكن قرأت ما كتبه الغزالي هنا بهذا العمق والوضوح وعبر عنه بهذه الكلمة الناصعة: «ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور»[1]. وسيأتي في كلامه مزيد أمثلة.

نموذج من إنفاق الأموال في غير ما هو أولى بها:

والنموذج الآخر يتمثَّل في بعض أرباب الأموال، والمغترَّون منهم فِرَق: «ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرابطات والقناطر، وما يظهر للنَّاس كافَّة، ويكتبون أساميَّهم بالآجُرِّ عليها، ليتخلَّد ذِكرُهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنُّون أنَّهم قد استحقُّوا المغفرة بذلك، وقد اغترُّوا فيه من وجهين:

أحدهما: أنَّهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرِّشَا والجهات المحظورة، فهم قد تعرَّضوا لسخط الله في كسبها، وتعرَّضوا لسخطه في إنفاقها. وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها، فإذ قد عصوا الله بكسبها، فالواجب عليهم التوبة، والرجوعُ إلى الله، وردُّها إلى مُلَّاكها، إمَّا بأعيانها، وإمَّا بردِّ بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن المُلَّاك، كان الواجبُ ردَّها إلى الورثة، فإن لم يبقَ للمظلوم وارثٌ، فالواجب صرفُها إلى أهمِّ المصالح، وربَّما يكون الأهمُّ التفرقةَ على المساكين، وهم لا يفعلون ذلك، خيفةً من ألَّا يظهر ذلك للناس، فيبنون الأبنية بالآجُرِّ، وغرضهم من بنائها الرياء، وجلب الثناء، وحرصهم على بقائها، لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا بقاء الخير.

(١) انظر: أصناف المغرورين للغزالي صـ ٥٩، تحقيق عبد اللطيف عاشور، نشر مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة.

QaradawiBooks.com

والوجه الثاني: أنَّهم يظنُّون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كُلِّف واحد منهم أن ينفق دينارًا، ولا يُكتب اسمه على الموضع الَّذي أنفق عليه ذلك، لم تسمح به نفسه، والله مطَّلع عليه، كُتب اسمه أو لم يكتب، ولولا أنَّه يريد به وجه النَّاس لا وجه الله لَمَا افتقر إلى ذلك.

وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال، ويمسكونها بحُكم البخل، ثمَّ يشتغلون بالعبادات البدنيَّة الَّتي لا يحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار، وقيام الليل، وختم القرآن، وهم مغرورون؛ لأنَّ البخل المُهلِك قد استولى على بواطنهم، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغنٍ عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حيَّة، وقد أشرف على الهلاك، وهو مشغول بطبخ السَّكَنْجَبِين[1] ليُسكِّن به الصفراء، ومن قتلتْه الحيَّة متى يحتاج إلى السَّكَنْجَبِين؟ ولذلك قيل لبِشْر: إن فلانًا الغني كثير الصوم والصلاة! فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره! وإنَّما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه، ومن جمعه للدُّنيا ومنعه للفقراء.

وممَّا عاب الغزالي كذلك على المتديِّنين من أرباب الأموال: أنَّهم ربَّما يحرصون على إنفاق المال في الحجِّ، فيحجُّون مرَّة بعد أخرى، وربَّما تركوا جيرانهم جياعًا.

فلذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحاجُّ بلا سببٍ، يهون عليهم السفر، ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين.

(١) السكنجبين: شراب مركب من حامض وحلو مسكن للصفراء. انظر: الوسيط مادة (س. ك. ن).

QaradawiBooks.com

يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه[١].

وكأنَّ ابن مسعود رضي الله عنه ينظر إلى زماننا هذا من وراء الغيب، ويصف ما فيه.

وهذه النماذج البشرية الَّتي وجَّه الغزالي إليها نقده تدلُّنا على مدى اهتمامه بإصلاح المجتمع، بدءًا بتصحيح المفاهيم المغلوطة والتصوُّرات الخاطئة، وبيان خداع النفس فيها، وإلقاء الأضواء على حقائقها وإظهار خباياها.

الغزالي ينقد سلاطين عصره ويحذِّر منهم:

ولم يكن نقد الغزالي ولا نصحه موجَّهًا للجمهور فحَسْب، ولا للعلماء والمتصوِّفة ونحوهم من الطبقات فحَسْب، بل شمل نصحه وتوجيهه السلاطين والوزراء، الَّذين بأيديهم أمر المسلمين، وطالما ذكر أنَّ صلاح الأُمَّة لا يتمُّ إلَّا بصلاح هاتين الفئتين: أهل العلم والفكر، وأهل السياسة والسلطة، فهما الصنفان اللذان إذا صلَحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، وطالما حكى قول بعض السلف: لو كان لي دعوة مستجابة لدعوتها للسلطان، فإنَّ الله يصلح بصلاحه خلقًا كثيرًا[٢].

والناس يمنعهم من إسداء النصح وقول الحقِّ المرِّ أمران: الخوف والطمع، وهو في حياته الجديدة ليس عنده ما يخاف عليه، وليس عندهم ما يطمع فيه، وقد خبت في قلبه جمرةُ الحِرْص، وحبُّ المال والجاه،

(١) الإحياء (٤٠٩/٣).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩١/٨)، من قول الفضيل بن عياض.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بعد أنْ جعل الدُّنيا طريقًا لسفره لا محلًّا لإقامته، واتَّخذ منها قنطرة يَعْبُرها ولا يَعْمُرها.

زاره وزير الخليفة أنوشروان في بيته تكريمًا له، وإقرارًا بمنزلته وفضله، وما كان هذا لَيَحْدُثَ من هؤلاء الكبراء إلَّا لمثل الغزالي، ولكنَّ أبا حامد قال له: «زمانُك محسوبٌ عليك، وأنت كالمستأجر (أي للأُمَّة) فتوفُّرك على ذلك أولى من زيارتي»[1]!

أدرك الغزالي ببصيرته وثقافته الواسعة أنَّ أوَّل ما نُقض من عُرَا الإسلام ما يتعلَّق بالحكم والسياسة، وأنَّ أبرز ما انحرف فيه الحكم عن صراط الإسلام كان في سياسة المال.

ولهذا شدَّد النكير على السياسة الماليَّة للسلاطين، وشدَّد على العلماء في الدخول عليهم أو مخالطتهم، أو قبول الهدايا منهم؛ لأنَّها رشوة على الدِّين، ولأنَّ أموالهم جلُّها سحتٌ حرام.

وقد ردَّ في «الإحياء» على علماء زمانه ممَّن استدلَّ بأخذ بعض السلف من عطايا الخلفاء والولاة في زمنهم، وفرَّق بين الحالَيْن بأمرين:

أحدهما ـ كما يقول بصريح العبارة ـ: أنَّ أموال السلاطين في عصرنا حرامٌ كلُّها أو أكثرها، وكيف لا والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة، ولا وجود لها! وليس يدخل منها شيءٌ في يد السلطان، ولم يبقَ إلَّا الجزية، وأنَّها تؤخذ بأنواعٍ من الظلم لا يحلُّ أخذُها به، فإنَّهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه، والوفاء له بالشرط، ثمَّ إذا نسب ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عُشر معشار عشيره.

(١) المنتظم لابن الجوزي (١٢٧/١٧).

QaradawiBooks.com

الثاني: أنَّ الظلمة في العصر الأوَّل ـ لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين ـ كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوِّقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلَّدون المِنَّة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرِّقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشَوْن مجالسهم، ولا يُكثِّرون جَمْعهم، ولا يحبُّون بقاءهم. بل يدعُون عليهم، ويطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أنْ يصيبوا من دينهم بقدر من أصابوا من دنياهم، ولم يكن بأخذهم بأس.

فأمَّا الآن، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطيَّة إلَّا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثير بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، والتجمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء، والتزكية والإطراء، في حضورهم ومَغِيبهم، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أوَّلًا، وبالتردُّد في الخدمة ثانيًا، وبالثناء والدعاء ثالثًا، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعًا، وبتكثير جَمْعه في مجلسه وموكبه خامسًا، وبإظهار الحبِّ والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسًا، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعًا، لم ينعم عليه بدرهم واحد، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله تعالى مثلًا: فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يُعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يُعلم أنَّه حرام أو يشكُّ فيه؟! فمن استجرأ على أموالهم، وشبَّه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاس الملائكة بالحدَّادين[1]!

(١) الإحياء (١٣٩/٢).

نسخة مجانية غير مصرح بطباعتها

QaradawiBooks.com

ويعلق الأستاذ الندوي على هذه الكلمة النابضة بالحيويَّة والقوَّة فيقول: «وقيمة هذه الكلمة الجريئة لا تعرف إلَّا في جوِّ الحكومات الشخصيَّة «الفرديَّة» الرهيب، حيث كانت كلمة واحدة تصدر من عالم أو مؤلِّف في نقد مَلِكٍ أو حاكمٍ تُطيح بحياته»[1]!

ولقد عقد الغزالي بابًا خاصًّا فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم، وحكم غشيان مجلسهم والدخول عليهم والإكرام لهم، قال فيه:

«اعلمْ أنَّ لك من الأمراء والعمَّال الظلمة ثلاثة أحوال:

«**الحالة الأولى**» وهي شرها: أنْ تدخل عليهم.

و«**الثانية**» وهي دونها: أن يدخلوا عليك.

و«**الثالثة**» وهي الأسلم: أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك.

أمَّا الحالة الأولى: وهي الدخول عليهم، فهو مذموم جدًّا في الشرع، وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار...».

وبعد أن ذكر جملة منها قال:

«فهذه الأخبار والآثار تدلُّ على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد، ولكن نفصِّل ذلك تفصيلًا فقهيًّا، نميز فيه المحظور عن المكروه والمباح، فنقول: الداخل على السلطان متعرِّض لأن يعصي الله تعالى إما بفعله أو بسكوته، وإما بقوله، وإما باعتقاده، فلا ينفك عن أحد هذه الأمور.

(١) رجال الفكر والدعوة صـ ٢٣٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أمَّا الفعل: فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دُور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن المُلَّاك حرام.

فأمَّا السكوت: فهو أنَّه سيرى في مجلسهم من الفُرُش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام، وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيِّئة. بل يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب، وشتم وإيذاء، والسكوت على جميع ذلك حرام. بل يراهم لابسين الثياب الحرام، وآكلين الطعام الحرام، وجميع ما في أيديهم حرام، والسكوت على ذلك غير جائز، فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله.

وأمَّا القول: فهو أن يدعو للظالم، ويُثني عليه، أو يصدِّقه فيما يقول من باطل، بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة، والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول عُمُره وبقائه، فإنَّه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

أمَّا الدعاء له: فلا يحل إلَّا أن يقول: أصلحك الله، أو وفَّقك الله للخيرات، أو طوَّل الله عُمُرك في طاعته، أو ما يجري هذا المجرى، فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة، مع الخطاب بالمولى، وما في معناه؛ فغير جائز، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء، فسيذكر ما ليس فيه، فيكون به كاذبًا ومنافقًا، ومكرِمًا لظالم، وهذه ثلاث معاصٍ، فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول، والتزكية والثناء على ما يعمل: كان عاصيًا بالتصديق وبالإعانة، فإنَّ التزكية والثناء إعانة على المعصية، وتحريك الرغبة فيه، كما أنَّ التكذيب

QaradawiBooks.com

والذم والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيــه. والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة.

الحالــة الثالثة: أنْ يعتزلهــم فلا يراهم ولا يروه، وهــو الواجب، إذ لا سلامة إلَّا فيه، فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، ولا يحب بقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يســتخبر عن أحوالهم، ولا يتقرَّب إلى المتَّصلين بهم، ولا يتأسَّف على ما يفوت بســبب مفارقتهم، وذلك إذا خطر بباله أمرهم، وإن غفل عنهم فهو الأحسن»[١] اهـ.

الغزالي يواجه الحكَّام بقول الحق:

ولم يقف الغزالي عند حد النقد لحكام عصره، والتنديد بسياساتهم، وظلمهم لرعيتهم في كتبه ومصنفاته، وخاصة «الإحياء». بل تجاوز ذلك إلى مواجهتهم بالنصح وإن كان صعبًا، وقول الحق وإن كان مرًّا، يشافههم حينًا، ويكتب إليهم أحيانًا، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا نقمة ظالم.

ولقد سجَّل التاريخ نقده للسلطان الســلجوقي سنجر بن ملك شاه، الَّذي كانت خرسان كلها تحت حكمه حين قال له: «وا أسفاه! إنَّ رقاب المســلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقــاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية»[٢]!

وكذلك بعث إلى أخيه الأكبر محمَّد بن ملك شاه ـ وكان أكبر ملوك عصره ـ رســالة ذكَّره فيها بمســؤوليَّته، وحذَّره من عقاب الله وغضبه، ولفت نظره إلى إصلاح المملكة.

---

(١) الإحياء (١٤٢/٢ ـ ١٤٦).

(٢) رسائل الغزالي بالفارسية، نقلًا عن رجال الفكر والدعوة صـ ٢٣٧.

QaradawiBooks.com

وبعث بعدد من الرسائل إلى «الوزراء» الَّذين كانوا يُعتبرون في ذلك العصر أعمدة السلطة التنفيذية، بل كانوا هم الحكام الفعليين. وكانت رسائله إليهم بالفارسية الَّتي يُتقنها ويتقنونها.

وهو في هذه الرسائل يجمع بين النقد والوعظ معًا، فهو ينكر ما يجب إنكاره، مثل الإسراف في المظاهر، وادعاء الألقاب الفخمة، وإهمال مصالح الناس، وفي الوقت نفسه يرغِّب ويرهِّب، ويخوِّف من الموت، وحساب الله وعذاب الآخرة.

كما أن هذه الرسائل ـ كما يقول الأستاذ الندوي ـ مثال للشجاعة والصدع بالحقِّ، ومثال لقوَّةِ الإنشاء، وبلاغة التعبير.

يقول للوزير فخر الملك: «صلِّ ركعتين في خَلوة، وتضرَّع إلى الله في سجودك، وقل: يا ملكًا لا يزول مُلكه، ارحم ملِكًا قارب زوال ملكه، وأيقِظْه من غفلته، ووفِّقه لإصلاح رعيته»!

ومما قال له: «اعلمْ أنَّ هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابًا بسبب المجاعات والظلم، ولمَّا بلغ النَّاس توجهك من أسفرائين ودامغان خافوا، وبدأ الفلَّاحون يبيعون الحبوب، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم، لِمَا كانوا يتوقَّعون من إنصاف منك، واستطلاع للأحوال، ونشاط في الإصلاح، أمَّا وقد وصلتَ إلى طُوس، ولم يرَ النَّاس شيئًا فقد زال الخوف، وعاد الفلَّاحون والخبَّازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار، وتشجَّع الظالمون، وكلُّ من يُخبرك من أخبار هذه البلد بخلاف ذلك، فاعلمْ أنَّه عدوُّ دِينِك».

«واعلمْ أنَّ دعاء أهل طوس بالخير والشرِّ مُجَرَّب، وقد نصحت للعميد كثيرًا، ولكنَّه لم يقبل النصيحة، وأصبح عِبرة للعالمَين، ونكالًا للآخرين.

QaradawiBooks.com

اعلم يا فخر الملك! أنَّ هذه الكلمات لاذعة، مُرَّة قاسية، لا يجرؤ عليها إلَّا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء، فاقدرها قدرها، فإنك لم تسمعها من غيري، وكل من يقول غير ذلك، فاعلم أنَّ طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق».

وكتب إلى مُجِير الدِّين: «إنَّ إغاثة الخلق واجبة على الجميع، فقد تجاوز الظلم عن الحدود، ولم أستطع أنْ أشاهد هذا الظلم، فهاجرت من طوس ولي سنة، حتَّى لا أشاهد هؤلاء الظلمة الَّذين لا يعلمون رحمة، ولا يُراعون حرمة، وقد ألجأتني بعض الضرورات إلى زيارة البلد، فوجدت الظلم مستمرًّا لم ينقطع».

ويقول في هذه الرسالة: «لقد بلغت المُدية العَظْم، وبلغ السَّيْل الزُّبَى، وكاد المسلمون يُستأصلون، وإن ما قسمه الموظَّفون من الدنانير على أهل البلد ـ أمانة من الملك ـ أخذوا أضعافها من الرعية، وانتهبها الظالمون والسَّفِلة من الناس، ولم يصل منها شيء إلى السلطان»[1].

تأثير الغزالي في محيط الأمة الإسلاميَّة:

على أنَّ الغزالي لم يتبوَّأ مكانته بين أُمَّة الإسلام لمجرد عمله العلمي على أهميته وضخامته، ولا لمجرد تصدِّيه لفضح الخطر الباطني، وللغزو الفِكْري المتمثِّل في فلسفة اليونان، وهدمه الصنم الكبير بضربة، سُمِع دويُّها في المشرق والمغرب. لم يتبوَّأ مكانته بهذا فحسب، بل تبوَّأها ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بما وهبه الله من إشعاع روحي، وتأثير وجداني، ترك أثره في جماهير الأمة المسلمة على طول القرون إلى اليوم.

(١) رسائل الغزالي بالفارسية، نقلًا عن رجال الفكر والدعوة صـ ٢٣٨، ٢٣٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لقد كان قبل الغزالي عمالقة كبار من أئمَّة الإسلام، مثل شيخه إمام الحرمين، وشيخ شيخه القاضي الباقلَّاني وشيخ الباقلاني أبي الحسن الأشعري، وكلهم أئمَّة هدى، ومصابيح دجى، ولكن تأثيرهم كان في محيط الخواص، لم يتعدَّهم إلى محيط الأُمَّة العام، الَّذي أثر فيه الغزالي خريج مدرستهم، وناشر علمهم وأفكارهم.

تُرى ما السر وراء هذا التأثير الَّذي امتد عرضًا فشمل أقطار الإسلام، وطولًا فشمل القرون والأعصار إلى اليوم، وعمقًا، فأثَّر في العقائد والأفكار والأخلاق والأعمال؟

قد يقال: إنَّ ذلك يرجع إلى قوَّةِ بيان الغزالي ووضوحه وسلاسته، الَّتي تمثل السهل الممتنع، هذا البيان الَّذي تتجسَّد فيه القدرة على «تبسيط» المعقَّدات، وتقريب أعوص المسائل إلى الأذهان، بحسن الشرح وضرب الأمثال، وجودة الترتيب الَّذي نجد فيه مهارة المعلم، وحرارة الداعية، حتَّى قيل بحق: إنَّه معلِّم الجماهير.

وقد يقال: إنَّ ذلك يرجع إلى عقل الغزالي الَّذي استوعب ثقافة عصره العقليَّة والشرعيَّة، ثمَّ هضمها وتمثَّلها، وأخرج منها من بين فرثٍ ودمٍ لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

وقد يقال: إنَّ شهرته في عالم العلم، ودنيا الفكر أولًا، ثمَّ في عالم المجاهدة الرُّوحيَّة ثانيًا، فتحت له العقول والقلوب، فأقبلت على آثاره، إقبال الظمآن على المورد العذب.

قد يقال هذا، وقد يقال أكثر منه، وكلُّه له نصيب من الصحَّة.

بيد أنَّ وراء هذا الإقبال من الأُمَّة على الغزالي وآثاره ـ بالإضافة إلى ما ذُكِر ـ سرًّا آخر، يتمثَّل ـ فيما أرى ـ في إخلاصه وتجرُّده لله، وفنائه عن

QaradawiBooks.com

حظوظ نفسه في مرضاة ربه، والكلام إذا صدر من القلب نفذ إلى القلوب، وإذا خرج من طرف اللسان لم يتجاوز الآذان، وليس النائحة كالثكلى.

كان الإخلاص أكبر همِّ الغزالي، وقد أنضى راحلة عُمره في البحث عنه، حتَّى ظفر به، فيما يظهر لنا من سيرته. والله أعلم بالسرائر.

وفي مرض موته، وقبيل رحيله من هذه الدنيا، سأله بعض أصحابه: أوصني. فأوصاه بكلمة واحدة: عليك بالإخلاص! فلم يزل يكررها حتَّى لحق بربِّه[1].

وبالنسبة لي كان الإمام الغزالي هو أوَّل من تعرَّفتُ عليه من أئمَّة الإسلام، عن طريق كتابين من كتبه الجمَّة: كتاب صغير هو «منهاج العابدين» أخذته من قريب لي، وكتابه الشهير: «إحياء علوم الدين» كان يقتنيه جار لنا، كان على شيء من الفقه والتصوُّف.

كان ذلك في وقت مبكر من حياتي، أي في الرابعة عشر من عمري تقريبًا، وأنا أخطو الخطوات الأولى إلى الأزهر الشريف، ملتحقًا بمعهد طنطا الديني. أما ابن تيمية ومدرسته التجديدية الشاملة، فلم أتعرَّف عليه إلَّا بعد ذلك.

ومن الحقِّ أنْ أقول: إنَّ الغزالي قد أثَّر في عقلي وقلبي معًا، فاستفدتُ منه لنفسي أولًا، وللناس بعد ذلك، وكثيرًا ما كنت أقرأ «الإحياء»، فأشعر بحرارة الإخلاص لدى مؤلفه تهُزُّ كياني، فتدمع عيني، ويخشع قلبي، وتصغر في عيني الدنيا، وتتجسد أمامي صورة الآخرة، ولا أحسب ذلك إلَّا أثرًا لصدق المؤلف مع الله، وهذه إحدى مزايا الغزالي الكثيرة: الربَّانيَّة

(١) ذكر ذلك ابن الجوزي في خاتمة ترجمته له في المنتظم (١٢٧/١٧).

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

المتجرِّدة لله زززز، الَّتي تتمثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

لقد عاش الغزالي حياته أوَّل الأمر كما يعيش جُلُّ علماء زمانه، وعلماء زماننا، أكبر همِّه الشهرة والجاه والمَحْمَدة عند الناس، والتفوُّق على الأقران، والغلبة في المناظرة، وقد أدرك من ذلك حظًّا عظيمًا، ثمَّ انقشعت الغشاوة عن عين بصيرته، فاكتشف أنَّ هذا كلَّه سرابٌ بِقِيعةٍ: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، فصمَّم على أنْ ينسحب من هذه الحلبة الصاخبة، وينخلع من هذه الحياة الزائفة في اعتقاده، الَّتي ظاهرها الدِّين، وباطنها الدُّنيا، وأنْ يعيش حياة أخرى قوامها الزهد والتجرُّد والإخلاص لله، حياة يرى أنَّ علمه وتعليمه ومحياه ومماته فيها لله ربِّ العالمين لا شريك له. وهكذا كما قال التاج السُّبْكي: «ترك الدُّنيا وراء ظهره، وأقبل على الله يعامله في سرِّه وجهره»[(١)].

وقد سجَّل الغزالي قصَّة حياته الفِكْريَّة والنفسيَّة بقلمه البليغ، تسجيلًا مؤثِّرًا بما فيه من وضوحٍ وصدق، في كتابه الفريد «المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذي العزَّة والجلال» الَّذي يعدُّ ـ على وجازته ـ من أهمِّ ما خطَّه قلمُ الغزالي، وما أنتجه فكره المعطاء، والَّذي يقول عنه أستاذنا المدعو له بالرحمة الدكتور محمَّد يوسف موسى: «هذا الكتاب لا نعرف أي مُفَكِّر أو فيلسوف كتب مثله أو ما يُدانيه، فهو اعترافات بخَلَجَات نفسه، وحركات قلبه وعقله، حتَّى وصل ممَّا أراد إلى خاتمة المطاف»[(٢)].

(١) طبقات الشافعية (١٩٣/٦).

(٢) فلسفة الأخلاق في الإسلام صـ ١٣٠، نشر مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٣م. وقال فيه =

QaradawiBooks.com

وكان قد تأكَّد لـــه بعد رحلته الحافلـــة في البحث عـــن اليقين: أنَّ السعادة الحقيقيَّة هي سعادة الآخرة، وأن لا مطمع فيها إلَّا بالتقوى وكفِّ النفس عن الهـــوى، وأنَّ رأس ذلك كلِّه قطع علاقة القلـــب عن الدُّنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابـــة إلى دار الخلود، والإقبال بكُنه الهمَّة على الله تعالى، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلَّا بالإعراض عن المال والجاه، والهرب من الشواغل والعلائق.

يقول: «ثُمَّ لاحظتُ أحوالي، فإذا أنا منعمس في العلائق، وقد أحدقتْ بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي ـ وأحســـنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مُقْبِل على علومٍ غير مهمَّة ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نِيَّتي فـــي التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت! فتيقَّنت أنِّي على شَـــفَا جُرُفٍ هارٍ، وأنِّي أشـــفيتُ على النَّار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال»[1].

ظل الغزالي مُتردِّدًا بين تجاذب شـــهوات الدنيـــا، ودواعي الآخرة، قريبًا من ستَّة أشـــهر، من أوَّل رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، حتَّى جاوز الأمر حدَّ الاختيار إلـــى الاضطرار، فلم يعد قـــادرًا على الكلام، ولا على هضم الطعام، وســـاء حاله، وضعف بدنـــه، فلجأ إلى الله لجوء المضطر، أنْ يســـهل عليه الإعراض عن حياته هذه، فأجابه الَّذي يُجيب المضطر إذا دعاه، وترك بغداد وأستاذيَّة المَدْرسة النِّظاميَّة بها، وساح في

= المستشرق الإنجليزي نيكلسون: وقد خلف لنا صفحات لا تقل في جمالها عن كتاب نيومان المسمى «أبولوجيا». انظر: في التصوف الإسلامي صـ ٨٣، ترجمة د. أبو العلا عفيفي، نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

(١) المنقذ من الضلال صـ ١٤٢.

QaradawiBooks.com

أرض الله حاجًّا أولًا، ثمَّ متنقِّلًا بين دمشق والقدس، وغيرهما من المدن حينًا وبين البراري والقفار حينًا آخر.

هكذا اعتزل الغزالي دُنيا النَّاس ـ بما فيها تدريس العلوم الشرعيَّة ـ لمَّا رأى نيَّته فيها مشوبة غير خالصة لله تعالى، إنَّما هو طلب الجاه، والشهرة وانتشار الصِّيت، وكان ذلك نتيجة تأمُّل فاحص في أعماق نفسه، وتحليل صادق لدوافعها، فلم يخدعه الظاهر عن الباطن، ولا الصورة عن الحقيقة، ولا العنوان عن المضمون.

ولم يكن هذا بالأمر الهيِّن على من عاش ملء السمع والبصر، تشير إليه الأصابع، وتشرئب نحوه الأعناق، وتتحدَّث عنه المجالس، وتسير بذكره الرُّكبان، يُعَظِّمه العامَّة والخاصَّة، ويذعن له العلماء، ويقربه السلاطين والوزراء. أو كما قال ابن السُّبكي: «عظيم الجاه، زائد الحشمة، عالي الرُّتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تُضرب به الأمثال، وتشدُّ إليه الرحال»[1]. لولا إرادة صادقة في ابتغاء ما عند الله، واعتزال ما عند الناس، إرادة لا تتهيَّأ إلَّا للأفذاذ الَّذين أخلصوا دِينَهم لله، وأخلصهم الله لدِينِه، مع لجوء إلى الله، واعتصام به، وابتهال إليه، أنْ يسهِّل على قلبه الإعراض عن الدُّنيا وزينتها، من الجاه والمال، والولد والأصحاب، وقد علم الله ما في قلبه، فاستجاب له.

اعتزل الغزالي النَّاس والحياة بما فيها من جاه، وشهرة طبَّقت الآفاق، مخلدًا إلى حياة الزهد والخشونة، منكبًّا على مجاهدة النفس، والارتفاع بها من جاذبية الطين والحمأ المسنون، إلى أفق

(١) طبقات الشافعية (١٩٧/٦).

QaradawiBooks.com

يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وقوله ﷺ: «**إنَّ اللهَ خلق آدمَ على صُورته**»(١).

حكى لنا الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي كيف لقيه في هذه الفترة، فقال:

رأيتُ الغزاليَّ في البَرِّيَّة، وبيده عُكَّازه، وعليه مُرَقَّعة، وعلى عاتقه رَكْوة، وقد كنتُ رأيتُه ببغداد يحضر مجلس درسه نحو أربعمائة عمامة من أكابر النَّاس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فقلت له: يا إمام، أليس تدريس العلم ببغداد خيرًا من هذا؟ قال: فنظر إليَّ شزرًا، ثمَّ قال: لما طلع بدر السعادة في سماء الإدارة:

تَرَكْتُ هَوَى لَيْلَى وَسُعْدَى بِمَعْزِلِ وَعُدْتُ إِلَى تَصْحِيحِ أَوَّلِ مَنْزِلِ!
وَنَادَتْ بِيَ الْأَشْوَاقُ: مَهْلًا فَهَذِهِ مَنَازِلُ مَنْ تَهْوَى، رُوَيْدَكَ فَانْزِلِ(٢)**!**

استمرت عزلة الغزالي نحو عشر سنوات، تاركًا للنَّاس فيها دنياهم الَّتي يتصارعون عليها حتَّى التعليم وتدريس العلوم الشرعيَّة، الَّذي رأى أنَّ نيته فيه لم تكن خالصة لوجه الله تعالى.

ولكن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء، فقد بدأ الغزالي نفسه الَّذي قطع نفسه عن الشواغل والعلائق يفكر في العودة، والقيام بواجب الدعوة والحركة لإحياء الدين.

تأمَّل الغزالي المجتمع من حوله، فرأى الضعف أو الفتور في الإيمان بأصل النبوَّة، ثمَّ في حقيقة النبوَّة، ثمَّ في العمل بما شرعته

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٨٤١)، عن أبي هريرة.

(٢) ذكرها ابن العماد في شذرات الذهب (٢٢/٦).

QaradawiBooks.com

النبوَّة، وتحقق شـيوع ذلك بين الناس، ونظر إلى أسبابه، فوجد بعضها يأتي من قبل الفلسـفة والخائضين فيها، وأنَّ الدين للعوام، والفلسـفة للخواص. وبعضها من قبل أدعياء التصـوُّف الَّذين يزعمون أنَّهم بلغوا مبلغًا ترقَّوْا فيه عن الحاجة إلى العبادة. وبعضها من علماء السوء الَّذين نفروا النَّاس عن الدِّين باتِّباعهم نزغات الشـياطين، وأهواء السلاطين، بالإضافة إلى فتنة الباطنيَّة وما أثارته من شكوك وشبهات، وما أغرت به من مطامع وشهوات.

رأى الغزالي في ذلك الوقت أنَّ خروجه مـن الصومعة متعيِّن عليه محتوم، «فمـا تغني الخلوة والعزلـة، وقد عمَّ الـداء، ومرض الأطباء، وأشـرف الخلق على الهلاك»[1]. وهو يرى نفسـه أهلاً لكشف شبهات هؤلاء جميعًا بكل يُسْر، حتَّى إنَّه يرى فضحهم أيسر عنده من شربة ماء، على حد تعبيره رضي الله عنه.

لقد خرج الغزالي من عزلته بعد تردُّد وتفكير طويل، ومشاورات مع أصحاب القلوب والبصائر، وكلهم أشـار عليه بترك صومعته، والرجوع إلى الإفادة والتدريس، لاعتبارات شـرعية مقنعة، ورؤى منامية مبشِّرة، واستشراف إلى ما وعد الله سبحانه على لسـان رسوله بإحياء دينه على رأس كل مائة سنة، وهو الآن على مشارف المائة الخامسة.

وقد عاد الرجل، ولكن بقلبٍ غير القلب، ورُوحٍ غير الرُّوح، وهو يقول عن نفسـه: «وأنـا أعلم أنِّـي وإنْ رجعت إلى نشـر العلم، فما رجعت! فإنَّ الرجـوع عَوْد إلى ما كان، وكنتُ في ذلك الزمان أنشـر العلم الَّذي به يُكسَـب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك

(١) المنقذ من الضلال صـ ١٥٧.

QaradawiBooks.com

قصدي ونيَّتي، وأمَّا الآن، فأدعو إلى العلم الَّذي به يُترك الجاه، ويُعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هو الآن وقصدي وأمنيتي، ويعلم الله ذلك مِنِّي.

وأنا أبغي أنْ أُصْلِحَ نفسي وغيري، ولست أدري أأصِل إلى مرادي أم أُخْتَرم دون غرضي، ولكنِّـي أومن إيمانَ يقينٍ ومشـاهدة، أنه لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم، وأنِّي لم أتحرَّك، ولكنَّه حرَّكني، وأنِّي لم أعمل، ولكنَّه استعملني، فأسـأله أنْ يُصلحني أولًا، ثمَّ يُصلِح بي، وأن يهديني، ثمَّ يهدي بي، وأن يُريني الحقَّ حقًّـا، ويرزقني اتِّباعه، ويُريني الباطلَ باطلًا، ويرزقني اجتنابَه»[1].

إنَّ قصَّة تطليق الغزالي للدُّنيا ومناصبها، وقد جاءت تسعى إليه ركضًا، وقصَّة مجاهدته وكفاحه في سـبيل وصوله إلى اليقيـن، والقرب من الله سبحانه، كان لها تأثيرها البالغ في الحياة الإسلاميَّة فكرًا وشعورًا وسلوكًا، فإنَّ المرء يؤثِّر بحاله أكثر ممَّا يؤثِّر بمقاله، وليس من المبالغة قول بعض الحكماء: حال رجلٍ في ألفِ رجل، أبلغ من مقال ألفِ رجلٍ في رجل!

ومن عجائب الأقدار أنَّ الرجل الَّذي فرَّ إلى العزلة، بُعدًا بنفسه عن طلب الشهرة وانتشـار الصيت، وحب الجاه والمنزلة في قلوب الخلق ـ هذا الرجل غدا اسمه من أشـهر الأسماء في تاريخ العلم والفكر والزهد بين المسلمين وغيرهم، إلى اليوم!

أمَّـا ما خلَّفه مـن ثـروة عِلميَّة، فحـدِّث ولا حـرج، ويكفي منها «الإحياء»، الَّـذي لا يُعرف كتاب بعـد القرآن والصحـاح أثَّر في حياة المسلمين مثله، حتَّى قيل فيه: كاد الإحياء يكون قرآنًا!

(١) المنقذ من الضلال صـ ١٥٩، ١٦٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تأثير الغزالي خارج العالم الإسلامي:

لم يقف تأثير الغزالي عند حدود العالم الإسلامي، بل تعدّاها إلى عالم الغرب، ووضح أثره ـ كما بيَّن «بالاسيوس» ـ في لاهوتيي اليهود الَّذين اعتمدوا على الغزالي في كثير من آرائهم، وذكر أنَّ في كتبهم المشهورة مقاطع كاملة ـ بل صفحات ـ من كتب الغزالي: «مقاصد الفلاسفة»، و«التهافت»، و«المنقذ»، و«الإحياء»، و«الميزان» وغيرها، وذلك بعد ما ترجموها في القرن الثالث عشر للرد على فلاسفة عصرهم، فمهَّدوا لنشر كتبه في أوربا، وكثر الإقبال عليها[١].

كما أثر الغزالي في كثير من مفكري النصرانيَّة في أوربا، الَّذين استفادوا من كتبه واستندوا إلى آرائه، مثل القديس الفيلسوف الأكويني، وباسكال وغيرهم[٢].

وحسبنا أنه كان له تأثير على أعظم شخصيَّة فلسفيَّة غربية في العصر الحديث، أعني «ديكارت»، الَّذي يعد أبا الفلسفة الحديثة، وقد بدأ أثر الشكِّ المنهجي عند الغزالي ـ الشكّ الَّذي يراد به الوصول إلى اليقين ـ واضحًا في منهج ديكارت، وقد دلَّت دراسات الدارسين إلى التشابه الكبير بين المنهَجَيْن، واستنتجوا أنْ يكون اللاحق قد تأثَّر بالسابق، لا سيَّما أن كتب الغزالي قد ترجمت إلى أوربا. ولكن قد أثبت البحاثة التونسي الأستاذ عثمان كعاك رحمه الله أنه زار مكتبة «ديكارت» في باريس، فوجد فيها نسخة مترجمة من كتاب «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالي،

(١) دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها لعبده الشمالي صـ ٥٥٣.

(٢) المصدر نفسه صـ ٥٥٤، وانظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور محمد علي أبو ريان صـ ٥٠٩.

QaradawiBooks.com

وقد علَّق ديكارت بخطه على الأجزاء الخاصَّة بالشـــك قائلًا: «تُنقل هذه إلى منهجنا»[١].

وقد أعجب به كثير من المستشرقين، حتَّى قال فيه «رينان» ما ذكرناه من قبل، وقال «مونخ» الألماني: «إن عظمة الغزالي في نظرنا ترتكز على شكِّه الَّذي بوَّأه مركزًا مرموقًا في تاريخ فلسفة الغرب».

وقال «كارا دي فو» الفرنســـي: «إنَّه ســـبق «كانت» إلى نظريَّة «عجز العقل»، وإن كتاب «التهافت» خير ما وُضع لدرس قيمة العقل»[٢].

هذه لمحات من سيرة الغزالي العامرة الخصبة، وجهوده الحافلة المتنوعة في خدمة الدين، ومقاومة خصومه، وإحياء علومه، وتجديد أثره في العقول والمشـــاعر والعزائم، حتَّى اســـتحقَّ أنْ يُطلق عليه «حُجَّة الإسلام».

* * *

(١) نقل ذلك عنه د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، انظر: المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، مقدمة الطبعة الثانية للدكتور محمود زقزوق صـ ٦، نشـــر مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٢) دراسات في تاريخ الفلسفة لعبده الشمالي صـ ٥٥٣.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

وقفة مع الناقدين للغزالي

كان أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) عند جمهور المتقدِّمين حُجَّة الإسلام، ومجدِّد المائة الخامسة، ومحيي علوم الدين، وقد أشرنا فيما سبق إلى كلام كثير منهم كعبد الغافر الفارسي، والأسنوي والسُّبْكي وابنه، وابن كثير، وابن العماد الحنبلي، وغيرهم من المعجبين به، والمثنين عليه، والمقتفِّين لخُطاه.

الناقدون للغزالي من المتقدِّمين:

ولكن الغزالي ـ كغيره من عظماء التاريخ، وقادة الفكر ـ لا بد أنْ يختلف النَّاس في تقويمه، ما بين مادح وقادح، سنة الله في خلقه، فلا عجب أنْ نجد بجوار هؤلاء جماعة آخرين انتقدوه ـ كلٌّ في مجاله ـ فأنكروا عليه بعض ما كتب من مصنفات ورسائل، أو بعض ما تبنَّاه من أفكار ومفاهيم وقيم، أو بعض ما اختاره من طريقة في الزهد والسلوك، أو بعض أساليبه في النقد والمعارضة، إلى غير ذلك، على تفاوت بينهم في درجة الإنكار، وقوَّة المعارضة، وقسوة الهجوم.

QaradawiBooks.com

• **نقد الطُّرْطُوشي**[١]:

من هؤلاء العلَّامة أبو بكر الطرطوشي المالكي (ت: ٥٢٠هـ)، الَّذي اتَّهم الغزالي بأنَّه هجر العلم إلى العمل، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان! ثمَّ شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلَّاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، حتَّى قال عنه: إنَّه غير أنيس بعلوم الصوفيَّة ولا خبير بها!

هذا ما نقله عنه العلَّامة تاج الدين ابن السُّبْكي في كتابه الشهير «طبقات الشَّافعيَّة»، في ترجمته للغزالي.

وقد ردَّ عليه ابن السُّبْكي بأن هذه دعاوي عارية عن الدلالة، قال: وما أدري كيف استجاز في دينه أنْ ينسب هذا الحبر إلى أنه دخل في وسوسة الشيطان؟!

كما رد ابن السُّبْكي على دعوى شوبه علوم الصوفيَّة بآراء الفلاسفة بأنَّه لم يصنِّف «الإحياء» إلَّا بعدما ازدرى علومهم، وحذَّر من كتبهم، وليس في الكتاب للفلسفة مدخل. والرجل ينادي على كافَّتهم بالكفر، وأنكر أن يكون في الكتاب رموز غير إشارات القوم الَّتي لا ينكرها عارف! قال: وليس للحلاج رموز يعرف بها، وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفيَّة، فمن الكلام البارد، فإنَّه لا يرتاب ذو نظر بأنَّ الغزالي كان ذا قدم راسخ في التصوُّف[٢].

---

(١) الطرطوشي هو: محمد بن محمد، أبو بكر الطرطوشي من أهل طرطوشة بشرق الأندلس، من فقهاء المالكية الحفاظ، ولد سنة (٤٥١هـ)، وتوفي سنة (٥٢٠هـ)، وله مؤلفات جليلة، منها: سراج الملوك، والتعليقة في الخلافيات. انظر: الأعلام للزركلي (١٣٣/٧، ١٣٤)، نشر دار العلم للملايين، ط ١٥، مايو ٢٠٠٢م.

(٢) طبقات الشافعية (٢٥٢/٦).

QaradawiBooks.com

• **نقد المازري:**

وبعد الطرطوشـــي الإمامُ أبو عبد الله المازري المالكي (ت: ٥٣٦هـ) الَّذي أنكر على الغزالي في «الإحياء» الاســـتناد إلى الأحاديث الواهية، وأنَّه يستحســـن أشـــياء مبناها على ما لا حقيقة له، كما أنكر قوله: «من مات بعد بلوغه، ولم يعلم أنّ البارئ قديم مات مســـلمًا إجماعًا». أنكر القول، وأنكر نقل الإجماع فيه.

وأنكر بشـــدَّة على الغزالي دعواه أنَّ في علومه ما لا يسوغ أنْ يودع في كتاب، قال: إن كان حقًّا فلِمَ لا يـــودَع في الكتب؟ ألغموضه ودِقَّته؟ فما المانع أنْ يفهمه عليه؟ وذكر أنه قرأ «الفلسفة» قبل استبحاره في علم أصول الدين «الكلام»، فأكســـبته الفلســـفة جُرأة على المعاني، وسهولة الهجوم على الحقائق.

وردَّ ابن السُّـــبْكي على المَازِري، وبين علة ذلـــك، وهي تعصُّبه في الكلام للأشعري، وفي الفقه لمالك، والغزالي ـ كشيخه إمام الحرمين ـ ربَّما خالفا الشـــيخ الأشـــعري في مســـائل من علم الـــكلام، والمغارية يستصعبون ذلك، حتَّى قال المازري في مسألة خالف فيها إمام الحرمين أبا الحسن الأشعري، وليست من المسائل المهمة: «من خطَّأ شيخ السُّنَّة أبا الحسن الأشعري فهو المخطَّأ»!

وربما ضعَّفا مذهب مالك في كثير من المسائل، كما فعلا في مسألة المصالح المرسلة.

هذا إلى اختلاف الطرق والأذواق، فطريقة المازري الجمود على ظاهر العبارات، والوقوف معها، والغزالي يتعمَّق في الحقائق، ويميل إلى إشارات

QaradawiBooks.com

القوم (يعني الصوفيَّة)، واختــلاف الطريقَيْن يوجب تباين المزاجين، وبعد ما بين القَلْبين، لا سيَّما وقد انضم إليه المخالفة في المذهب.

ثم ردَّ ابن السُّــبْكي على المازري انتقاداته علــى الغزالي، فبيَّن من الناحية التاريخية أنَّ الغزالي لم ينظر في الفلسفة إلَّا بعد ما استبحر في علم الكلام، كما ذكر ذلك في «المنقذ»[1].

وأما دعــوى الجرأة على المعاني، فليســت له جــرأة إلَّا حيث دلَّه الشرع، ويدعى خلاف ذلك من لا يعرف الغزالي.

وأما ما عــاب به «الإحياء» مــن توهية بعض الأحاديــث، فالغزالي معروف بأنَّه لم تكن له في الحديث يد باسطة.

وعامة ما في «الإحياء»من الأخبار والآثار مبدَّد في كتب من سبقه من الصوفيَّة والفقهاء.

وأما الأحاديث الموضوعة فــي كتابه، فليس هو الَّذي وضعها، حتَّى يُنكر عليه!

وأما مسألة من مات ولم يعلم «قدم الباري»، ففرق بين عدم الاعتقاد بالقدم، واعتقاد أن لا قدم، والثاني هو الَّذي أجمعوا على تكفيره.

وكلام الغزالي في «المسلم الساذج» المؤمن بالله على الجملة، فهو الَّــذي ادَّعى الغزالي الإجمــاع على أنه مؤمن نــاجٍ، من حيث مطلق الإيمان الجُملي.

(١) طبقات الشافعية (٦/٢٤٠) وما بعدها.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأمَّا ما أشـــار إليه الغزالي من العلم الَّذي لا يـــودع في كتاب، فهو يدافع عنه بشـــدة بأنَّ للعلوم دقائق نهى العلماء عن الإفصاح بها، خشية على ضعفاء الخلق، وأمورًا أُخَر لا تحيط بها العبارات.

واســـتدلَّ بما روى البخاري في «صحيحه» من قـــول علي كرم الله وجهه: حدِّثوا النَّاس بما يعرفون، أتحبُّون أن يكذَّب الله ورسوله[١]؟!

نقل عن الشافعي: أنه كان يذهب إلى أنَّ القاضي يقضي بعلمه، وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء[٢].

ولا شكَّ أنَّ بعض دفاع ابن السُّبْكي قابل للمناقشة والردِّ.

- **نقد ابن الصلاح:**

ومن منتقدي الغزالي: الحافظ تقي الدين ابن الصلاح، بسبب إدخاله «المنطق» في علم «أصول الفقـــه» وقوله في أوَّل «المســـتصفى»: «هذه مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيـــط بها فلا ثقة بعلومـــه أصلًا»[٣]. فقد اعترض ابن الصلاح على الغزالي في ذلك بأنَّ الصحابة وسلف الأمة لم يعرفوا المنطق، وعنهم أخذ علم الدين.

---

(١) رواه البخاري في العلم (١٢٧).

(٢) طبقات الشـــافعية (٢٥١/٦)، انظر: المدرسة الســـلفية وموقفها من علم المنطق وعلم الكلام للزميل الدكتور محمد عبد الستار نصار صـ ٢٩٣ ـ ٣٠٢، نشـــر دار الأنصار، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

ففيها مناقشة موسَّـــعة لفتوى ابن الصلاح في تحريمه الاشـــتغال بالمنطق، وقد شارك ابن الصلاح فـــي ذلك عدد مـــن علماء المذاهـــب في المشـــرق والمغرب مثل أبي إســـحاق المرغيناني، وابن عقيل، وابن الجوزي، والقشيري، والطرطوشـــي، والمازري، والنووي، وأبي شامة، وابن تيمية.

(٣) المستصفى صـ ١٠.

QaradawiBooks.com

وقد ردَّ الإمام التقي السُّبْكي على ابن الصلاح، كما نقله عنه ابنه في «الطبقات»، وبيَّن ما جدَّ من الحاجة إلى المنطق، حيث لم تكن هذه الحاجة قائمة في عهد الصحابة والتابعين، لا إليه، ولا إلى غيره من العلوم الَّتي كانت حاصلة عندهم بأصل الفطرة والنشأة، وجهد في تحصيلها من بعدهم، مثل أصول الفقه واللغة والنحو والتصريف وغيرها.

قال: «ولا ينكر فضل الشيخ تقي الدين (ابن الصلاح) وفقهه وحديثه ودينه، وقصده الخير، ولكن لكلِّ عمل رجال»[(١)].

• **نقد ابن الجوزي:**

وممَّن انتقد الغزالي بقوَّةٍ: الحافظُ النقَّاد المؤرِّخ الفقيه أبو الفرج ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، وذلك في مواضع عدة من كتابه النقدي القيم «تلبيس إبليس»[(٢)]، كما عرض لشيء من ذلك في ترجمته للغزالي في كتابه «المنتظم»[(٣)].

وذكر أنه ألَّف كتابًا خاصًّا جمع فيه مآخذه على الإحياء، سمَّاه «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء» لم يُتح لي الاطلاع عليه، وأحسبه لم يُطبع.

ومأخذه الأساسي على «الإحياء» أمران:

الأول: أنه وضعه على مذهب الصوفيَّة، وترك فيه قانون الفقه، وعلَّل ذلك بأنَّه صحب الصوفيَّة، فرأى حالتهم الغاية، ونظر في كتبهم، وكلام

(١) طبقات الشافعية (٦/٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) انظر على سبيل المثال الصفحات: تلبيس إبليس صـ ١٤٩، ١٥٨، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٦٧، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٩.

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/١٢٤ ـ ١٢٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القدماء منهم، فاجتذبه ذلك بمرة عما يوجبه الفقه. ومن قرأ «التلبيس» وجد فيه شيئًا كثيرًا من ذلك.

وهو يعجب كيف يصدر هذا من فقيه مثله! أو يقول: عزيز عليَّ أن يصدر هذا من فقيه! وأحيانًا يذكر ما ينقله الغزالي عن الحارث المحاسبي، ويعجب منهما على علمهما كيف يقولان ذلك؟!

ثم يقول: والحارث أعذر عندي من أبي حامد؛ لأنَّه كان أفقه[١].

وذكر مرَّة ما حكاه أبو حامد من أحوال الصوفيَّة، ومبالغاتهم في الزهد والسلوك وهضم النفس وتربية المريدين، إلى حد معاقبة النفس بالوقوف على الرأس طول الليل أو رمى المال في البحر بدل التصدق به خشية الرياء، ثمَّ قال: «وإنِّي لأتعجَّب من أبي حامد كيف يأمر بهذه الأشياء الَّتي تخالف الشريعة، وكيف يحل القيام على الرأس طوال الليل؟ وكيف يحل رمي المال في البحر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال»[٢]؟

إلى أنْ قال: فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقه بالتصوُّف!»[٣].

والمأخذ الثاني: أنه ذكر في «الإحياء» من الأحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل، قال: وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف، وإنَّما نَقَل نقْل حاطب ليل[٤].

---

(١) انظر: تلبيس إبليس صـ ١٥٨.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة.

(٣) تلبيس إبليس صـ ٣١٢.

(٤) المنتظم لابن الجوزي (١٢٦/١٧).

QaradawiBooks.com

والعجيب أنَّ ابن الجوزي نفسه لم يسلم ممَّا عاب به الغزالي وأخاه أحمد الواعظ، فحشا كتبه الوعظيَّة بما لا يصح ولا يثبت، مثل كتابه «ذمّ الهوى»، وغلبت فيه طبيعة الواعظ، على طبيعة الناقد الحافظ، صاحب كتب «الموضوعات»، و«العلل المتناهية» وغيرها!

ومن قبل لاحظ ذلك العلامة المؤرِّخ «ابن الأثير» وسجَّله على ابن الجوزي[1] والمعصوم من عصمه الله.

نقد ابن تيمية:

ومن الَّذين انتقدوا الغزالي بشدة من المتقدِّمين شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) الَّذي تميَّز عن الغزالي بتبحُّره في علم الحديث وفقهه رواية ودراية، حتَّى قيل: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديثٍ[2]. فجمع بين المنقول والمعقول، وبين آثار السلف وعلوم الخلف، مع يقينٍ لا يتزعزع بوجوب «الاتباع» الصارم، لما كان عليه الصحابة ومن تبعهم من خير القرون.

تعقَّب ابن تيمية أبا حامد الغزالي في «الرسالة السبعينيَّة» معلِّقًا على بعض ما ذكره الغزالي في بعض كتبه، مثل «معيار العلم» و«فيصل التفرقة» و«جواهر القرآن» من أقوال وتأويلات، رآها مخالفة لمنهج السلف، وأنَّها من جنس كلام الفلاسفة والقرامطة الَّذين طالما أنكر

(١) عند حديثه عن أحمد الغزالي الواعظ ـ شقيق الإمام أبي حامد ـ وانتقاد ابن الجوزي له بروايته الأحاديث التي لم تصح في وعظه، قال: والعجب أنه يقدح فيه بهذا وتصانيفه هو ووعظه محشوٌّ به، مملوء منه! انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٠٩/٨)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) القائل هو الذهبي.

QaradawiBooks.com

عليهم، وممَّا قالــه هنا: «وصاحب «الجواهر» لكثــرة نظره في كلامهم، واستمداده منهم؛ مزج في كلامه كثيرًا من كلامهم، وإن كان قد يكفِّرهم بكثير ممَّا قد يوافقهم عليه في موضــع آخر»[١]! وهو يحذر من الاغترار بكلام الغزالي هنا خاصَّة، لما له من الحرمة والمنزلة عند المسلمين.

وفي «الفتاوي الكبرى» يتحــدَّث عن «الإحياء» وأن فيه فوائد كثيرة، لكن فيه موادّ فاسدة من كلام الفلاسفة، تتعلق بالتوحيد والنبوَّة والمعاد، والخطر في خلطهــا بمعارف الصوفيَّــة، فتكون بمنزلة مــن أخذ عدوًّا للمســلمين، فألبســه ثياب المســلمين! وقد أنكر أئمَّة المسلمين على أبي حامد هذا في كتبه وقالوا: أمرضه «الشفاء»! يعنون «شفاء» ابن سينا في الفلسفة. وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة.

وفيه أشياء من أغاليط الصوفيَّة وترهاتهم.

ويعترف ابــن تيمية منصفًا بأنَّ في «الإحيــاء» ـ مع ذلك ـ من كلام المشــايخ الصوفيَّة العارفين المســتقيمين في أعمال القلــوب، الموافق للكتاب والسُّــنَّة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ـ ممَّا هو موافق للكتاب والسُّنَّة ـ ما هو أكثر ممَّا يُرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد النَّاس وتنازعوا فيه[٢].

كما ردَّ عليه في «الفتاوي» في قولــه: إنَّ تعلُّم المنطق فرض كفاية. واعتبر هذا غلطًــا عظيمًا عقلًا وشــرعًا، وذكر أنَّ بعــض المنطق حقٌّ، وبعضه باطــل، وأنَّ أكثر ما فيه مــن حق لا يُحتاج إليــه، والقدر الَّذي

(١) الرسالة السبعينية (٤٢/٥، ١٠٧) من مجموع الفتاوى الكبرى، نشر فرج الله زكي الكردي، نشر كردستان العلمية، القاهرة، ١٣٢٩هـ.

(٢) الفتاوي الكبرى (١٩٤/٢).

QaradawiBooks.com

يحتاج إليه منه تستقلُّ به الفطر السليمة، وأكَّد أنه علم لا ينتفع به البليد، ولا يحتاج إليه الذكي[١]، وفصَّل ذلك في ردِّه على المنطقيِّين.

وفي كتابه «نقض المنطق» نراه يحاسب الغزالي على أساس توثيق الكتب المشكوك في نسبتها إليه مثل «المضنون» و«المشكاة» و«المعارج» ونحوها، لتشابه كلامه فيها مع الكتب الأخرى الثابتة النسبة إليه. وهذا وحده لا يكفي لإثبات نسب هذه الكتب من الغزالي عند الإنصاف.

تعقيب وتقويم:

لا نزاع في أنَّ هؤلاء الَّذين نقدوا الإمام الغزالي أئمَّة كبار أيضًا، ولا ريب أنَّهم فيما أخذوه على الغزالي لم يكونوا أصحاب هوى ولا غرض دنيوي، ولكن كثيرًا من مآخذهم على أبي حامد، راجع إلى اختلاف المشارب والأمزجة والثقافات، كما أشار إلى ذلك الإمام تقي الدين السبكي، وابنه تاج السُّبْكي فيما ذكرناه من قبل.

ومما ينبغي أنْ نسجِّله هنا: أنَّ الَّذين انتقدوا الغزالي لم يغمطوا حقَّه فيما أحسن فيه، بل كلهم أشاد بعلمه ونبوغه وفضله.

فالطرطوشي يقول عنه: رأيت الرجل وكلمته، فرأيته رجلًا من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول زمانه[٢].

(١) الفتاوى الكبرى (١٩٥/٢).

(٢) طبقات الشافعية (٢٤٢/٦، ٢٤٣).

QaradawiBooks.com

وابن الجوزي يقول: صنَّف الكتب الحسان في الأصول والفروع، الَّتي انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها[١].

ومع انتقاده لكتاب «الإحياء» نراه عمل على اختصاره وتلخيصه في مهذَّب منه سماه «منهاج القاصدين».

وابن تيمية رغم نقده للإحياء يقول: إن فيه من المواد النافعة أكثر ممَّا يردُّ منه[٢].

ومع هذا لم يسعهم أنْ يسكتوا عما يرونه خطأ أو باطلًا من كلام الغزالي، نصحًا لله ولرسوله وللمؤمنين، فلم يكن بينهم وبين الغزالي محاسدة أو منافسة، ولكن ليس في العلم كبير، وكل أحد دون رسول الله ﷺ يؤخذ منه ويردُّ عليه.

الغزالي والتصوُّف:

ومما لا ريب فيه أنَّ أبرز ما أُخِذ على الغزالي: اندماجه في طريق الصوفيَّة اندماجًا يكاد يكون كاملًا، وإذعانه لما عند القوم من معارف وأحوال، دون أنْ يحاكمها إلى منطق الفقه وأصوله.

فقد ذكر في «المنقذ» أنه بعد أنْ سبر ما عند الفلاسفة والمتكلمين والباطنيَّة ولم يجد فيها ما يهبُه اليقين، ويهديه إلى الحقيقة الَّتي ينشدها؛ انتهى به المطاف إلى طريق الصوفيَّة. فعلم يقينًا ـ كما يقول هو ـ أنَّهم «هم السالكون لطريق الله تعالى خاصَّة، وأنَّ سيرتهم أحسن

(١) المنتظم (١٢٤/١٧، ١٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥٥٢/١٠)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

السِّيَر، وطريقهم أصوب الطريق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكم الحكماء، الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيِّروا شيئًا من سِيَرهم وأخلاقهم، ويبدِّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به.

وبالجملة: فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها ـ وهي أوَّل شروطها ـ تطهير القلب بالكُلِّيَّة عما سوى الله تعالى. ومفتاحها الجاري منها مجرى «التحريم» من الصلاة: استغراق القلب بالكُلِّيَّة بذكر الله. وآخرها: الفناء بالكُلِّيَّة في الله؟». وهذا الآخر بالإضافة إلى ما يدخل تحت الاختبار والكسب، ولكن الترقِّي مستمرٌّ حتَّى ينتهي إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، ولا يحاول معبِّر أن يعبِّر عنها إلَّا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكن الاحتراز عنه. قال: وعلى الجملة: ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيَّل منه طائفة «الحلول» وطائفة «الاتِّحاد» وطائفة «الوصول» وكل ذلك خطأ. بل الَّذي لابسته تلك الحالة، لا ينبغي أنْ يزيد على أن يقول:

وكان ما كان ممَّا لست أذكره فظُنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر[1]»!

هكذا كان دخول الغزالي إلى التصوُّف دخول المحبِّ العاشق، لا دخول الفاحص الناقد، فلم ينظر إلى علوم الصوفيَّة وتراثهم بعين النقد الَّتي نظر بها إلى علوم الفلاسفة والمتكلِّمين والباطنيَّة، بل بعين الرضا والحب، والحب يُعمي ويُصِمّ.

(١) المنقذ من الضلال صـ ١٤٥، ١٤٦.

QaradawiBooks.com

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا[1]!
وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ[2]!

وسرُّ هذا أنَّه تعامل مع التصوُّف بقلبه قبل عقله، وبذوقه قبل فقهه، وهذا ما جعله يقبل أشياء ممَّا أُخذ على القوم في الفِكر، وفي السلوك، دون أنْ يعرضها على قانون الفقه، أو منطق العقل.

ومن أجل هذا أنكر عليه العلامة ابن الجوزي وغيره من الناقدين قبوله لكثير من أفكار الصوفيَّة وأعمالهم وأحوالهم، وهي مخالفة لقانون الشرع، منحرفة عن الكتاب والسُّنَّة الصحيحة.

وربما اعتذر أبو حامد في بعض الأحيان عن تجاوزات بعض القوم باعتذارات لا يقبلها منها الفقهاء، كقوله بعد حكاية الصوفي الَّذي عرفه النَّاس بالإصلاح في محله، فخاف على نفسه الفتنة، فدخل الحمام، وسرق بعض الثياب الفاخرة، ولبسها وخرج، فلحقه النَّاس وأخذوا منه الثياب وصفعوه، وصار يعرف بعد ذلك بـ «لص الحمام»؟ فسُرَّ بذلك وسكنت نفسه!

قال أبو حامد: «فهكذا كانوا يروِّضون أنفسهم، حتَّى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق، ثمَّ من النظر إلى النفس»[3]، و«أرباب الأحوال ربَّما

(١) البيت لعبد الله بن معاوية. انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي صـ ٣٢٧، نشر دار المعارف، القاهرة، وقال: هو أول من ذكر (عين الرضا) في شعره، وأرسل مثلًا.

(٢) من شعر أبي البركات المنقري، كما في تاريخ بغداد وذيوله (٨/٢١)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

(٣) انظر: الإحياء (٣٥٨/٤).

QaradawiBooks.com

عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه، مهما رأوا صلاح قلوبهم، ثمَّ يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير»[١].

وابن الجوزي شدَّد النكير على أبي حامد في حكاية هذا وأمثاله، واستحسانه وتبريره[٢].

ومع هذا لا ينكر منصف دارس للغزالي ولكتبه ـ ولإحيائه خاصَّة ـ أنه لم يقبل التصوُّف بعُجَره وبُجَره، بل رفض في حزم تصوُّف أهل الحلول والاتِّحاد كالحلاج وأشباهه، ولم يقبل إلَّا «التصوُّف السني» القائم على الكتاب والسُّنَّة، واجتهد أنْ يرد كل فكرة أو خلق أو سلوك، أو حال، ممَّا يقول به المتصوِّفة، إلى أصول إسلاميَّة، وأن يستدلَّ عليها بالقرآن والحديث والأثر.

كما حاول أنْ يخفِّف من غلواء القوم في فهمهم للتوكُّل والزهد ونحوهما وإنْ أصابه شيء من رذاذهم.

ومما يُذكر له أنَّه نبَّه على ضرورة «العلم» الشرعي لسالك طريق الآخرة، خلافًا لما كان شائعًا بين كثير من الصوفيَّة أنَّ العلم حجاب! وقد جعل أوَّل كتاب من كتب «الإحياء» الأربعين «كتاب العلم»، وأول عقبة يجب أنْ يجتازها «العابد» هي «العلم» كما في «منهاج العابدين»، وأكَّد في مواضع لا تحصر: أنَّ السعادة لا تنال إلَّا بالعلم والعمل.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٨٨).

(٢) يقول ابن الجوزي هنا: كيف يجوز أنْ يطلب صلاح القلوب بفعل المعاصي؟ أوَقد عدم في الشريعة ما يصلح من قلبه حتى يستعمل ما لا يحل فيها؟ وهذا من جنس ما تفعله الأمراء الجهلة من قطع من لا يجب قطعه، وقتل من لا يجوز قتله ويسمونه «سياسة»، ومضمون ذلك أنَّ الشريعة ما تفي بالسياسة! وكيف يجوز للمسلم أنْ يعرض نفسه لأن يقال عنه: سارق! وهل يجوز أن يقصد وهن دينه عند شهداء الله في الأرض؟ إلخ. انظر: تلبيس إبليس صـ ٣١٣.

QaradawiBooks.com

وقال في رسالة «أيها الولد»: إنَّ العلم بدون عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون[١]!

يضاف إلى هذا رفضه للتأويلات الباطنيَّة الَّتي تخرج بالنصوص الشرعيَّة عن مقتضى ظواهرها «بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل»، فإنَّ هذا يقتضي بطلان الثقة بالألفاظ وتسقط من منفعة كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فإنَّ ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له! ومثَّل لذلك بقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤، النازعات: ١٧]: أي إشارة إلى قلبه! وقوله: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي ما يَتوكَّأ عليه ويعتمده ممَّا سوى الله، فينبغي أن يلقيه! ومثله حديث: «**تسحَّروا، فإنَّ في السحور بركة**»[٢]. وتأويله بأنَّه الاستغفار في الأسحار! وبهذا الطريق توصل الباطنيَّة إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها[٣].

وممَّا يدلُّ على إنصافه وتدقيقه ما ذكره في كتاب «ذم الغرور» من «ربع المهلكات» من «الإحياء»، حيث لم يغفل عن التنبيه على «المغترِّين» من المتصوِّفة برغم دعواهم أنَّهم أهل الله وأصحاب البصائر، قال وهو يعد أصناف المغترِّين من الخلق: الصف الثالث: المتصوِّفة،

(١) انظر: مجموعة رسائل الإمام الغزالي صـ ٢٥٩.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥)، كلاهما في الصوم، عن أنس.

(٣) الإحياء (٣٧/١) كتاب: العلم، وأكَّده في كتاب: آداب تلاوة القرآن (٢٩٠/١)، ومما يؤسف له أنَّ الغزالي الذي أنكر هذا النوع من التأويل المسرف، مال إلى شيء مثله في تأويل الكوكب والقمر والشمس في قصة إبراهيم بأنها حجب من نور، بعضها أكبر من بعض! وليس المعنى بها هذه الأجسام المضيئة، إلى آخر ما قال في كتاب ذم الغرور من الإحياء (٤٠٦/٣، ٤٠٧). وهو ما أنكره عليه ناقدوه كابن الجوزي وابن تيمية، وهم محقون، ويُؤيِّدهم منطق الغزالي نفسه.

QaradawiBooks.com

وما أغلب الغرور عليهم! وهم فِرَق كثيرة ثمَّ ذكرهم وكشف الستار عن غرورهم فرقة فرقة[١].

ومن أهـــم ما أبرزه الغزالي في التصوُّف: أنـــه نقله من مجرد الذوق والتحليق والشـــطح والتهويل، إلى «علم أخلاقي عملي»، يعالج أمراض القلوب وآفات النفوس ويزكيها بمكارم الأخلاق.

ومن نظر إلى «الإحياء» عرف أنَّ لبابه وغايته في نصفه الأخير. وهو يتكون من ربعين: ربع «المهلكات» وربـــع «المنجيات»، وكل من هذه وتلك عشرة كاملة وكلها تدور حول «الأخلاق».

فهو ـ كما ذكر في مقدمات الكتاب ـ يذكر في «المهلكات» كل خُلق مذموم ورد القرآن بإماطته، وتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه.

ويذكر في «المنجيات» كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها، من خصال المقرَّبين والصِّدِّيقين الَّتي بها يتقرَّب العبد من ربِّ العالمين[٢].

كما أَخَذ عليهم من الناحية العلميَّة عدم دِقَّتهم في تعريفاتهم لأعمال القلوب، لغلبـــة أحوالهم الذاتيَّة والآنية عليهم، ولهـــذا نجده يعلِّق على قولين متناقضين ظاهرًا في حقيقة التوبة بقوله:

«وكلام المتصوِّفة أبـــدًا يكون قاصرًا، فإن عـــادة كل واحد منهم أنْ يخبر عن حال نفســـه فقـــط، ولا يُهمه حـــال غيره، فتختلـــف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان.

(١) الإحياء (٣/٤٠٤ ـ ٤٠٦).
(٢) الإحياء (١/٣).

QaradawiBooks.com

بالإضافة إلى الهمَّــة والإرادة والجِدِّ، حيث يكــون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه، لا يهمُّه أمرُ غيره»[١].

ومن تتبَّع «الإحياء» وغيره من كتب الغزالي بإنصاف، وجد أنَّه حاول كبح جماح القوم، والوقوف بهم عند الحدود والحواجز الشرعيَّة، وضبط أقوالهــم وأعمالهم، بتقييد مُطلقِهــا، وتحديد مُبهمِهــا، وإعطائها معنى مقبولًا، ونجح في ذلك إلى حد بعيد.

ومن عرف كيــف كان التصوُّف قبل الغزالي، ثــمَّ كيف صار بعده، عرف فضل الغزالي على التصوُّف وأهلــه، وما ترك فيه من أثر واضح، يشــهد به المتخصِّصون في علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلاميَّة.

وهذا ما اعترف به وقرَّره الَّذين عُنوا بدراسة التصوُّف ورجاله وتاريخه، من المسلمين، ومن المستشرقين أيضًا، وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله واحد من أشهر هؤلاء المستشــرقين وهو الأستاذ «نيكلســون» في دراساته عن «التصوُّف الإسلامي وتاريخه» الَّتي ترجمها الدكتور أبو العلا عفيفي يقول:

«كتب صوفي فارسي من رجال القرن الخامس الهجري، ينعى على معاصريه تسميتهم شهواتِهم «شــرعًا»، وأوهامَهم الكاذبة «علمًا إلٰهيًّا»، ونزوات قلوبهم ورغبات نفوسهم «حبًّا إلٰهيًّا»، وتسميتهم الزندقة «فقرًا»، والشك «صفاءً»، وإنكار الدين «فناءَ النفس»، وإهمال شرع النبيِّ «طريقًا في التصوُّف»[٢].

(١) الإحياء (٤/٤٢).

(٢) انظر: كشف المحجوب للهجويري صـ ١٩٩، دراســة وترجمة د. إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

وفي سنة (١٠٤٥)[١] ميلادية ألف القشيري رسالته المشهورة في علم التصوُّف، يذكِّر أهل عصره من الصوفيَّة بما كان عليه قدماؤهم من الورع والتقوى في القول والعمل، وما آل إليه التصــوُّف من بعدهم من زوال الورع، واشــتداد الطمع، وضياع حرمة الشــريعة مــن القلوب، ورفض التمييز بين الحلال والحرام، وطرح الاحتشام، والاستخفاف بالعبادات إلى غير ذلك.

أمَّا أنَّ هذه الصيحة الَّتي صاحها القُشَــيري لم تذهب سُدًى، فيرجع الســرّ فيه إلى الغزالي، فإنَّه مزج التصوُّف بالقرآن والحديث مزجًا تامًّا، واستخرج من المجموع مادَّة واحدة، وقد بقيت كُتُبه على الأيام، لا لأنَّها من إملاء عقلــه وحده، بل لأنَّهــا كانت نتيجة لرغبــة صادقة ملحَّة في تحصيل حياة روحية مطمئنة. أي أنَّ الغزالي حلَّ مشــكلته في نفسه قبل أنْ يضع نتائجها في كتبه».

وبعد كلام عن عزلة الغزالي، ورحلته من الشك إلى اليقين، واهتدائه إلى طريق الصوفيَّة يقول مبيِّنًا موقف الغزالي:

«أمَّا الغزالي نفسه، فقد تشبث دائمًا بنقطتين جوهريتين لم تُجرَح من أجلهما عقيدته في الإسلام: الأولى: تقديسه للشرع، والثانية: وجهة نظره في الألوهيَّة، فإنَّه أوصد الباب في وجه مذهب وحدة الوجود بقوله ـ مع أهل الســنة ـ: إنَّ الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث، وأنَّه بمقدار ما يتحقق فــي النفس الإنســانية من صفــات الكمال الإلٰهيَّــة، يكون اســتعدادها لمعرفة الله، وأنَّ العبد عبد، والرب رب، ولن يصير أحدهما الآخر البتة، أما علمنــا بالله فموقوف علــى إرادة الله تعالى، وهو يعرِّفنا

(١) أي قبل ميلاد الغزالي بإحدى عشرة سنة، فقد ولد سنة (٤٣٩هـ) ـ (١٠٥٦م) تقريبًا.

QaradawiBooks.com

بنفسه عن طريق ما يوحي به إلى الأنبياء والأولياء[١] الَّذين هم من خلقه. وبهذا المعنى الرُّوحي العميق فهم الغزالي الألوهيَّة، فقرب الله من قلوب الخلق، ولكنَّه قرب «الله»، لا «الكل في واحد»[٢].

على أن من أخطر ما يؤخذ على الغزالي ـ بالنسبة إلى التصوُّف ـ هو قضية «الكشف» أو «المكاشفة»، الَّتي يحصل الصوفي على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الرُّوحيَّة، وبعد الترقِّي في مدارج السالكين ومنازل السائرين، وقد صرح الغزالي أن «علم المكاشفة» ممَّا لا يجوز أن يودع في الكتب.

وإذا جمح به الفكر أو القلم يومًا، فذكر شيئًا من الإشارات أو اللمحات ممَّا يحوم حول هذا «الحِمَى المحرَّم»، فسرعان ما يتذكر ويقبض عِنان القلم، حتَّى لا يبوح بما لا يجوز البوح به من أسرار ومكنونات «لا يحاول معبِّر أنْ يعبر عنها إلَّا اشتمل لفظه على خطأ صريح» كما قال[٣].

وهذه المكاشفات وحديث الغزالي عنها قد جلبت عليه طعن الطاعنين كما رأينا من قبل كلام المازري وغيره، ويبدو أن ذلك بدأ في أوائل حياته رحمه الله تعالى.

ففي مطلع كتابه «منهاج العابدين» ـ وهو آخر كتاب صنَّفه ولم يستملِه إلَّا خواص أصحابه، كما في مقدمة الكتاب المطبوع ـ يذكر أنه ألَّف في علم طريق الآخرة كتبًا، كـ «إحياء علوم الدين» و«القربة إلى

(١) الأولياء لا يوحى إليهم، وإنما قد يُلهمون، وإلهامهم لم تضمن له العصمة.
(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه صـ ٨٣، ٨٤.
(٣) انظر: مجموعة رسائل الإمام الغزالي صـ ٥٥٥.

QaradawiBooks.com

الله» وغيرها، اشـتملت على دقائق من العلـوم، اعتاصت على أفهام العامَّة، فقدحوا فيها، وخاضوا فيما لم يحسـنوه منها، وتمثَّل الغزالي هنا بما يُعزى إلى الإمام عليّ زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه من شعر يقول فيه:

إِنِّي لَأَكْتُـمُ مِنْ عِلْمِـي جَوَاهِرَهُ ... كَيْلَا يَرَى ذَاكَ ذُو جَهْـلٍ فيُفْتَتَنا
وقَـدْ تَقَدَّم فـي هذا أبو حَسَـنٍ ... إلى الحُسَيْن، ووصَّى قبله الحَسَنا
يا رُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لَـوْ أَبُوحُ بِه ... لَقِيلَ لِي: أَنْـتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا!
وَلَاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْـلِمُونَ دَمِي ... يَـرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَه حَسَـنَا[1]!

أتحبُّون أنْ يكذب الله ورسوله[2]؟!

وكم من مسـألة نص العلماء عـن عدم الإفصاح بها، خشـية على إفضاح من لا يفهمها.

وهذا إمامنا الشافعي رضي الله عنه يقول: إنَّ الأجير المشترك لا يضمن، قال الربيع: وكان لا يبوح به خوفًا من أجير السوء.

قال الربيع أيضًا: وكان الشـافعي رضي الله عنه يذهب إلى أنَّ القاضي يقضي بعلمه، وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء.

فقد لاح لك بهذا أنه ربَّما وقع السكوت عن بعض العلم، خشية من الوقع في محذور. ومثل ذلك يكثر»[3] اهـ. كلام التاج السبكي.

---

(١) منهاج العابدين للغزالي صـ ٤٧، ٤٨، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، نشر مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(٢) سبق تخريجه صـ ١٠٦.

(٣) طبقات الشافعية (٦/٢٥١، ٢٥٢).

QaradawiBooks.com

والحق أنَّ هذا الرد أو الاعتذار من صاحب «الطبقات» لا يشفي الغليل، وكل ما ذكره من أمثلة لا تدل على أكثر من حجز بعض المسائل عن بعض العوام وأمثالهم إذا خيف عليهم أن يسيئوا فهمها، أو يستغلُّوها استغلالًا سيئًا، وأنْ يخاطب كل قوم بلسانهم، على قدر عقولهم.

وليس فيما ذكره ما يدلُّ على إخفاء حقائق العلم عن العلماء أنفسهم، فلا يباح به إلَّا لمن كان من نفس المشرب والمذهب، ممَّن يؤتمن على السر ولا يفشيه!

والذي يبدو لي من كلام الغزالي، وممَّا ذكره من الشعر المنسوب إلى زين العابدين ـ وما أظنه صحيحًا عنه ـ ينبئ بأنَّ ثمة أسرارًا تُناقض مقررات الشرع المعروفة، بحيث لو أفصح بها مفصِح لحُكِم عليه بالردة، واستبيح دمه، وهذا لا يكون إلَّا فيما يخالف المقطوع به في الإسلام، أو ما يسميه العلماء ـ ومنهم الغزالي نفسه في بعض كتبه ـ المعلوم من الدين بالضرورة.

والله تعالى قد أنزل كتابه للنَّاس جميعًا، ليعقلوه، ولينذروا به، وليعملوا بموجبه، كما قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقد يتفاوت النَّاس في فهم القرآن والاستنباط منه، ولكنَّه ميسَّر للذكر بالنسبة لهم جميعًا، ومن آتاه الله فهمًا أو تأويلًا ـ مثل عليٍّ وابن عبَّاس رضي الله عنهما ـ فمن واجبه أنْ يبيِّن للنَّاس ما فهمه، كل حسب طاقته[1].

(١) راجع: ميزان العمل صـ ١٨٢ وما بعدها.

QaradawiBooks.com

الغزالي وإنكار البعث الجسماني:

وأخطر من هذا كله ـ ممَّا أصاب الغزالي من الصوفيَّة وربَّما من الفلسفة أيضًا ـ ما اتهمه به الفيلسوف الأندلسي ابن طُفيل قديمًا، وردَّده بعض أساتذة الفلسفة الإسلاميَّة حديثًا: أنه كفَّر الفلاسفة الإسلاميِّين، لإنكارهم البعث الجسماني، واعتقادهم أنَّ البعث للنفوس خاصَّة، وأنَّ كل اللذائذ والآلام في الآخرة رُوحية محض. ثمَّ يراه ينتحل هو هذا المذهب ويقره.

وتكفير الغزالي للفلاسفة بهذا ـ ضمن القضايا الثلاث المعروفة ـ أمر ثابت عن الغزالي بيقين، وواضح لكل من قرأ كتابيه: «التهافت» و«المنقذ».

أما انتحاله للمذهب الَّذي أنكره، فيبدو هذا في أوائل كتابه «ميزان العمل»، حيث ذكر أنَّ النَّاس في أمر الآخرة أربع فرق:

فرقة: اعتقدت الحشر والنشر، والجنَّة والنار، كما نطق به الشارع، وأفصح عن وصفه القرآن، وأثبتوا اللذات الحسية الَّتي ترجع إلى المنكوح والمطعوم والمشموم والملموس والملبوس والمنظور إليه.

واعترفوا بأنَّه ينضاف على ذلك أنواع من السرور، وأصناف من اللذات الَّتي لا يحيط بها وصف الواصفين، فهي ممَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأنَّ ذلك يجري أبدًا بلا انقطاع، وأنَّه لا يُنال إلَّا بالعلم والعمل.

وهؤلاء هم المسلمون كافَّة، بل المتَّبِعون للأنبياء على الأكثر من اليهود والنصارى.

QaradawiBooks.com

وفرقة ثانية: وهم بعض الإلٰهيِّين الإسلاميِّين من الفلاسفة، اعترفوا بنوع من اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها، وسمَّوْها لذة عقليَّة.

وأما الحِسِّيَّات، فأنكروا وجودها من الخارج، ولكن أثبتوها على طريق التخيل في حالة النوم، ولكن النوم يتكدَّر بالتنبُّه، وذلك لا تكدُّر له، بل هو على التأبيد.

وفرقة ثالثة: ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال، وزعموا أنَّ التخيُّل لا يحصل إلَّا بآلات جسمانية، والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن، والَّذي هو آلته في التخيُّل وسائر الإحساسات، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد أن اطَّرحه، فلا يبقى له إلَّا آلام ولذات ليست حسية، ولكنها أعظم من الحسية، فإنَّ الإنسان في هذا العالم أيضًا ميله إلى اللذات العقليَّة ونفرته عن الآلام العقليَّة أشد.

وإلى هذا ذهبت الصوفيَّة، والإلٰهيون من الفلاسفة من عند آخرهم، حتَّى إنَّ مشايخ الصوفيَّة صرَّحوا ولم يتحاشَوْا، وقالوا: من يعبد الله لطلب الجنَّة، أو للحذر من النار، فهو لئيم.

وإنما مطلب القاصدين إلى الله، أمر أشرف من هذا، ومن رأى مشايخهم، وبحث عن معتقداتهم، وتصفَّح كتب المصنِّفين منهم، فهِمَ هذا الاعتقاد من مجاري أحوالهم على القطع.

وفرقة رابعة: وهم جماهير من الحمقى لا يعرفون بأسمائهم، ولا يعدُّون في زمرة النظار، ذهبوا إلى أنَّ الموت عدم محض، وأنَّ الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما، ويرجع الإنسان بعد موته إلى العدم كما كان قبل رجوعه[1].

(١) انظر: مقدمته لكتاب ميزان العمل صـ ١٦٢ وما بعدها.

QaradawiBooks.com

أخذ ابن طفيل قديمًا، والدكتور سليمان دنيا حديثًا، من كلام الغزالي هنا أنَّ الصوفيَّة ـ باعتراف الغزالي ـ ينكرون البعث الجسماني صراحة، وحيث إنَّ الغزالي قد رضي طريقهم، فهو مثلهم في الاعتقاد!

والذي أراه: أن في كلام الغزالي هنا ـ عن موقف الصوفيَّة من قضية البعث الجسماني والجزاء المادي في الآخرة ـ غموضًا وإجمالًا، ولا يستطيع المتأمِّل المنصِف لكلامه أن يقطع بأنَّه يصفهم بإنكار الجزاء المادي الأخروي جملة.

إنما الَّذي يُفهم منه أنَّهم لا يعيرون اللذات والآلام المادِّيَّة التفاتًا، ولا يعنيهم إلَّا لذات الروح، وآلام الروح، وأن الالتفات إلى النعيم الحسي أو العذاب الحسي، من شأن العوام الَّذين لا يشغلهم إلَّا هذا الغلاف الطيني الَّذي اسمه «الجسم».

ولهذا يعتبرون التطلُّع إلى هذه المادِّيَّات انحطاطًا أو لؤمًا، كما نقل الغزالي عنهم: من عبد الله طلبًا لجنته، أو خوفًا من ناره، فهو لئيم[1]!

فهم هنا لا يجحدون أن لله جنة يطلبها بعض الناس، ونارًا يخافها بعض الناس، وهم في نظرهم «اللؤماء» الَّذين لا يصنعون خيرًا إلَّا لجزاء مادي ينالونه!

وهذا معروف مشهور عن الصوفيَّة أنَّهم يقولون: لا تكن كعبد السوء، إنْ خاف عمل، ولا كأجير السوء؛ إن لم يُعط أجرًا لم يعمل[2]!

(١) الإحياء (٤/٢٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤/٣١٠).

QaradawiBooks.com

وفي هذا ينقلون ما يُذكر عن رابعة أو غيرها:

لَيْسَ لي في الجِنَانِ والنَّارِ حظٌّ أنا لا أبتغي بحبِّي بديلًا[1]!

وقول الصوفيَّة: إنَّما اللذَّة لذَّة الـرُّوح، وإنَّما العذاب عذاب النفس، من باب القصر الإضافي لا الحقيقي، كما نقول: إنَّما الإنسان عقل، أو: ما العلم إلَّا ما نفـع، أو: إنَّما الفقيه من يخشـى الله، أو إنَّما الميت من مات قلبه. وأمثال هذا لا يحصى.

وهذا هو الَّذي يُقـرأ في كتبهم ويـروى عنهم، فهـم لا يجحدون الأجزية المادِّيَّة، ولكنَّهم يحتقرونهـا، ويحتقرون من يجعلها أكبر همه، وغاية سـعيه، ويبالغون في ذلك إلى حد يكادون ينكرون عبادة الله رغبًا ورهبًا، وخوفًا وطمعًا.

وهذا يعتبر منهم خطأ وضلالًا؛ لأنَّه مناف لما في القرآن الكريم، ولكنَّه ليس كفـرًا يخرج صاحبه من الملة، وقـد رد عليهم الإمام ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين»، ونقلنا عنه ذلك في كتابنا «العبادة في الإسلام».

وكيف يدَّعي الغزالي على الصوفيَّة أنَّهم ينكرون المعاد الجسماني، والجزاء الجسـماني، وهو يذكر في نفس الكتاب (ميزان العمل) ونفس السـياق أن ذلك هو اعتقاد المسـلمين كافَّة ـ بهذا التعميم ـ بل اعتقاد أتباع الأنبياء على الأكثر؟

هل معنـى هذا أنه يخـرج الصوفيَّة مـن زمرة المسـلمين كافَّة؟ وبالتالـي يخرج نفسـه من المسـلمين؛ لأنَّه رضي طريـق الصوفيَّة،

(١) نسبه ابن الجوزي في صفة الصفوة لشاب في مجلس ذي النون المصري (٤٥٠/٢)، تحقيق أحمد بن علي، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

واعتبرها أصوب الطرق؟ أم يا ترى هو يأخذ من الصوفيَّة السيرة والأخلاق والسلوك، ولا يأخذ عنهم الاعتقاد، وبخاصة أنه لم يقل: إنَّ عقائدهم أصح العقائد، مع أنَّ العمل ثمرة العقيدة، والسلوك ترجمة عما في القلب من تصورات ومفاهيم؟

إنَّ هذه التساؤلات تدلُّنا على أنَّ ما قد يُفهم من ظاهر كلام الغزالي مردود، يردُّه السياق، ويردُّه المنطق، ويرده صريح كلام الغزالي عن الفلاسفة وعن الصوفيَّة في كتبه الأخرى.

ولو افترضنا خلافًا بين كتب الغزالي، فإنَّ المتأخِّر منها يحكم على المتقدِّم، و«المنقذ» من أواخر ما ألَّف، وهو فيه مصرٌّ على تكفير الفلاسفة بقولهم في المسائل الثلاث المعروفة.

أما القول بأن له مذهبَيْن: أحدهما للجمهور، والثاني للخواصِّ، وأنَّه يرى أن عقائد الفلاسفة ليست باطلة في ذاتها، وإنَّما الباطل ذكرها للعوام، فهذا ما يردُّه الثابت الصريح المقطوع به من كلامه في «التهافت» و«المنقذ» و«الإحياء»وغيرها. ومن ادَّعى غير ذلك فعليه الدليل، ولا دليل.

أما إيمان الغزالي بالبعث الجسماني، وبالآخرة وما فيها من نعيم حسي وروحي، أعده الله للمؤمنين في الجنَّة، وما فيها من عذاب مادي ومعنوي أعده الله للكافرين في النار، فإن كتبه مملوءة به، فيما لا يحصى من المواضع، والاستدلال عليه من مصنفاته من باب تحصيل الحاصل.

وَلَيْسَ يَصِحُّ في الأَذْهَانِ شَيْءٌ إذا احتاج النَّهَارُ إلى دَلَيلِ[1]!

(١) من شعر المتنبي، كما في ديوانه صـ ٣٤٣، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

الغزالي وعلم الحديث:

ومن أهم ما أُخِذ على الغزالي تقصيره في علم الحديث، وإنْ شئنا الدقة قلنا: في علوم الحديث، وقد رأينا ابن الجوزي يصفه بأنَّه في الحديث «حاطب ليل»[١]، أي: يأخذ كل ما وجده، دون تمحيص ولا انتقاء.

ويرجع هذا إلى أنَّ المدرسة الَّتي نشأ فيها الغزالي، وتكوَّنت في حلقاتها شخصيَّته العلميَّة ـ مدرسة إمام الحرمين خاصَّة ـ كان يغلب عليها الطابع العقلي الجدلي، وكان أهم ما يدرس فيها علوم الكلام والأصول والفقه والمنطق والجدل، ولم تكن لها عناية كافية بالحديث وعلومه، وقلما يسلم المرء من تأثير بيئته.

وقد عيب على شيخه إمام الحرمين بعض ما عيب عليه في ذلك، ولكن الغزالي زاد على أستاذه في هذا كثيرًا؛ لأنَّ الموضوعات الَّتي عالجها في التصوُّف والسلوك تتسع للضعيف من الحديث أكثر ممَّا يتَّسع الفقه الَّذي يتعلَّق بالأحكام، وبيان الحلال والحرام، ومثل ذلك علم «الأصُولَيْن»: أصول الدين، وأصول الفقه، وهي الَّتي اشتهر بها شيخه.

وقد ذكرت في كتابي «الرسول والعلم» أنَّ الغزالي ذكر في «كتاب العلم» من «الإحياء» نحو (٥٥) خمسة وخمسين حديثًا، منها (١٣) ثلاثة عشر في مرتبة الصحيح أو الحسن، والباقي ضعيف جدًّا، رغم اشتهاره على الألسنة والأقلام.

ومن الإنصاف أنْ نبيِّن أنَّ الغزالي لم يكن هو وحده الَّذي سقط في أحابيل الأحاديث الواهية والموضوعة، فقط سقط في ذلك المتصوِّفة من

(١) المنتظم لابن الجوزي (١٢٦/١٧).

QaradawiBooks.com

قبلــه، وهو أخذ ما فــي كتبهم وأبقاه فــي كتبه، والمتصوِّفــة معروفون بالتساهل في ذلك؛ لأنَّ مجالهم «الرقائق».

بل إنَّ الفقهاء لــم ينجوا من الوقوع فيما وقع فيــه الصوفيَّة، فكثيرًا ما ذكروا في كتبهم أحاديث معلَّقة غير مســندة ولا ثابتة، وهذا ما جعل ابن الجوزي يصــف كتابــه «التحقيق في تخريــج التعاليــق»، وهذَّبه ابن عبد الهادي في كتابه «تنقيح التحقيق»، وصنَّف الحافظ الزيلعي كتابه «نصب الراية لأحاديث الهداية»، وكم فيه من حديث يقول عنه: غريب. أي: لا سند له ولا أصل، وهو اصطلاح خاص به.

وكتب التفســير حشــيت بمــا لا يصــح ولا يثبت مــن الحديث والإســرائيليَّات، بل إن كتب الحديث ذاتها ـ فيما عــدا الصحاح ـ فيها الكثير من المردود لدى صيارفة الحديث.

حتى كتاب «ابن ماجه»، وهو سادس «الكتب الستة» المشهورة، فيه أحاديث حكموا بوضعها!

وإنما يعرِف ذلك ويميِّز الصحيح من السقيم، والمقبول من المردود، الخبــراءُ الَّذين آتاهم الله المعرفــة بالحديث روايتــه ودرايته، ولم يكن الغزالي منهم بحكم بيئته العلمية، وما غلب عليها من ثقافة.

وهذه ـ في نظري ـ نقطة الضعف الأولــى والخطيرة عند الغزالي، وكذلك عند كثيــر من الصوفيَّة: أنه لم يتعمِّق فــي العلوم المنقولة من التفســير الأثري والحديــث وآثار الســلف، الَّتي هي أســاس العلوم الشــرعيَّة، وقد اعترف في كتابه «قانون التأويــل» بأن بضاعته في علم الحديث مزجاة.

QaradawiBooks.com

فهذا جعله يستدل بأحاديث ضعيفة أو لا أصل لها، أو موضوعة مختلقة، كما يغفل عن أحاديث صحيحة أو متَّفق عليها في موضوعه، كان يجب أن يذكرها. وربَّما لو عرفها لغيَّرت من مسار تفكيره.

ويبدو ممَّا كتبه في مقدمة كتابه الشهير في «الأصول»، وهو «المستصفى» أنه كان يرى أنَّ العلوم النقليَّة أمرها هيِّن. فقد ذكر في المقدمة: أنَّ العلوم ثلاثة، منها: عقلي محض كالهندسة والحساب والنجوم.. إلخ، وهذه لا علاقة للشرع بها.

ونقلي محض، كالأحاديث والتفاسير، والخطْب في أمثالها يسير، ويستوي في الاستقلال بها الصغير والكبير؛ لأنَّ قُوَّة الحفظ كافية في النقل، وليس فيها مجال للعقل[١].

ونظرة الغزالي هنا يشوبها القصور، فهناك النقلة الَّذين يحفظون الحديث والتفسير ـ دون تمحيص ولا نقد ـ مثل الأرض الَّتي تحفظ الماء ليستقي منها الآخرون، وإن لم تنبت هي زرعًا ولا كلأ، كما في حديث أبي موسى الأشعري في «الصحيحين»[٢].

وهناك الَّذين يجمعون بين الرواية والدراية، وبين الحفظ والفقه، وبين النقل والنقد، مثل فقهاء الحديث الَّذين عرفوا تراثنا كثيرًا منهم مثل مالك والشافعي وأحمد والطبري والخطابي وغيرهم من المتقدِّمين، وفي المتأخِّرين مثل ابن دقيق العيد، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر وغيرهم، على تفاوت بينهم، وهم الَّذين شبَّههم الحديث الصحيح بالأرض الطيِّبة الَّتي ينزل عليها الماء فتقبله، وتنبت الكلأ والزرع الكثير.

(١) انظر: المستصفى صـ ٣، ٤، وطبقات الشافعية (٢١٠/٦).

(٢) رواه البخاري في العلم (٧٩)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٢).

QaradawiBooks.com

وقد ذكر ابـــن تيمية أنَّ الغزالي في أواخره قطع بأنَّ كلام الفلاســفة لا يُفيد علمًا ولا يقينًا، بل وكذلك قطع في كلام المتكلمين، قال:

«وآخر ما اشتغل به النظر في «صحيح البخاري» ومسلم، ومات وهو مشتغل بذلك»[١].

وحكى ذلك عنه عبد الغافر الفارســي بعد أن ذكــر عودته إلى بلده «طوس»، واتخــاذه بجوار بيته مدرســة لطلبة العلم، وخانقــاه (رباطًا) للصوفية، وتوزيع أوقاته على التلاوة والذكر والتدريس ومجالســة أهل القلوب، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات مَن معه عن فائدة، ثمَّ قال:

«وكان خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ، ومجالسة أهله، ومطالعة «الصحيحين»: البخاري ومسلم، اللذين هما حُجَّة الإسلام»[٢]. يعني: بعد القرآن.

ولعلَّه لو استقبل من أمره ما استدبر، لبدأ بطلب الحديث، والاعتصام بصحيح السنة وهدي النبوة. فإنَّ خير الهدْي هدي محمَّد ﷺ.

وقد كان بعض شــيوخ الصوفيَّة الأولين يقول لمريــده: جعلك الله صاحب حديث صوفيًّا، ولا جعلك صوفيًّا صاحب حديث[٣]!

يريد أن من طلب الحديث أولًا، وقف على أرض صلبة، وجعل الحديــث أصلًا، وعرض عليــه مواجيد التصــوُّف وأحواله، ووزنها

(١) مجموع الفتاوى (١٨٥/٩).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٤/٥٥، ٢٠٥)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٣) هذه مقولة أبي الحسن سري. انظر: الإحياء للغزالي (٢٢/١).

QaradawiBooks.com

بميزان السنة الثابتة، وبهذا يحكِّم السنة في التصوُّف، ولا يحكِّم التصوُّف في السُّنَّة.

بخلاف من خاض في التصوُّف أولًا، ثمَّ طلب الحديث، فإنَّه غالبًا ما يحاول توجيه الحديث ليسند التصوُّف، وبهذا ينقلب الأصل فرعًا، والحاكم محكومًا.

وقد حاول كثيرون قديمًا وحديثًا أنْ يعتذروا عن إسناد الغزالي إلى الأحاديث الضعيفة، وخاصة في «الإحياء» بأنَّ الكتاب في الرقائق والترغيب والترهيب وفضائل الأعمال، والعلماء أجازوا رواية الضعيف في هذا المجال.

وممن اعتذر بذلك للغزالي قديمًا الحافظ المفسِّر المؤرخ ابن كثير، حين ترجم باختصار للغزالي في «البداية والنهاية» فقال عن «الإحياء»:

«وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيَّات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوُّف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات، كما يوجد في غيره من كتب الفروع الَّتي يُستدل بها على الحلال والحرام! فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمرًا من غيره»[1].

وأود أنْ أشير هنا إلى جملة حقائق:

١ ـ أنَّ الاستشهاد بالحديث الضعيف في الرقائق والترغيب وفضائل الأعمال، ليس أمرًا متفَقًا عليه، بل هناك من عارض فيه، كـ «البخاري ومسلم وابن العربي وابن حزم» وغيرهم، ولكن جمهور العلماء أجازوه.

(١) البداية والنهاية (٢١٤/١٦)، وانظر: فلسفة الأخلاق في الإسلام صـ ٢١٩ ـ ٢٢٤.

QaradawiBooks.com

٢ ـ أنَّ الَّذين أجازوا الاستشـــهاد بالضعيف فـــي المجال المذكور اشترطوا له شـــروطًا ثلاثة معروفة، منها ألا يكون شديد الضعف، وأنْ يندرج تحت أصل كلي ثابت بأدلة الشرع الأخرى، وألا يعتقد بثبوته، بل الاحتياط.

٣ ـ أنَّهم نبَّهوا على ألا تُروى الأحاديث الضعيفة بصيغة الجزم: مثل: قال رســـول الله ﷺ. بل بصيغـــة التمريض، مثل: رُوي عن رســـول الله، وحُكي عنه أو ذُكر عنه، أو يُقال، رواه فلان بسند ضعيف، إلخ.

٤ ـ أن «الإحياء» لم يلتزم بهذه الشـــروط، ولهذا نجد فيه الأحاديث الضعيفة جدًّا والموضوعة، وما لا أصل له ولا سند، وهي للأسف مرويَّة بصيغة الجزم.

ونظرًا لمنزلة الغزالي عند المســـلمين، ومنزلة كتاب «الإحياء»، فقد انتشرت هذه الأحاديث الواهية والموضوعة بين جماهير المسلمين.

٥ ـ أن كثيرًا من الأحاديث المذكورة في «الإحياء» ليست لمجرد الترغيـــب والترهيب وترقيق القلـــوب، بل كثيرًا ما يُســـتدلُّ بها على موقف الإسلام من بعض القضايا المهمة، كقضية الزهد، والنظرة إلى المال، والغنى والفقر، والتوكُّل، والأخذ بالأسباب، وأنَّ للقرآن باطنًا وظاهـــرًا، وأنَّ من العلـــم ما يجـــب أنْ يخفى عن النَّـــاس حتَّى عن العلماء.. ونحو ذلك.

٦ ـ أن بعض الأحاديث الضعيفة يترتب على قبولها اختلال النِّسَـــب بين الأعمال، كما رتَّبها الشرع، فيعظُم ما حقُّه التصغير، أو يصغُر ما حقُّه التعظيم، أو يقدَّم ما حقُّه التأخير، أو يؤخَّر ما حقُّه التقديم.

QaradawiBooks.com

على أن ممَّا ينبغي ذكره هنا: أنَّ الحافظ «زين الدين العراقي»، قد خدم الكتاب خدمة جليلة بتخريجه الموجز لأحاديثه المطبوع معه في حاشيته، والمسمَّى: «المغني عن حمل الأسفار، بتخريج ما في الإحياء من الأحاديث والأخبار»، فيجب على كل قارئ للإحياء مراجعة تخريج العراقي، ليعرف منه درجة الحديث، وإن كان فيه ما يُتعقَّب، ولكنَّه مهم ونافع على كل حال.

وكم أتمنَّى أنْ يُختصر من الكتاب ـ أعني «الإحياء» ـ «منتقًى» يُبقي على رُوحه وحرارته، كما يُبقي على فوائده العلميَّة والتربويَّة ـ وهي كثيرة وفيرة ـ ويحذف التجاوزات والمبالغات، والأحاديث الضعيفة ـ أو الشديدة الضعف على الأقل ـ وبهذا نقدِّم للثقافة الإسلاميَّة خدمة جليلة.

الناقدون للغزالي من المعاصرين:

ليس عجيبًا أن نجد من المعاصرين من ينقد «الغزالي»، وقد نقده من قبل أئمَّة سابقون.

والناقدون للغزالي ليسوا فئة واحدة، بل نراهم مدارسَ شتَّى، وطرائقَ قِدَدًا.

فمنهم من ينقده لأشعريته ومذهبه في تأويل الصفات ونحوها، وما بقي فيه من رواسب التأثر بالفلسفة.

ومنهم من ينقده لصوفيته ومنهجه في نصرة التصوُّف وتبنِّيه.

ومنهم من ينقده لدعوته إلى إهمال الحياة المادِّيَّة وتقدُّم المجتمع، استغراقًا في طلب السعادة الشخصيَّة. وهو أثر من آثار تصوُّفه.

ومنهم من ينقده لاستفادته من أفكار الآخرين دون أن ينسبها إليهم.

QaradawiBooks.com

ومنهم من ينقده؛ لأنَّه رأى أفكاره يناقــض بعضها بعضًا، وأنَّه يبني في كتاب ما يهدمه في آخر.

ومنهم من ينقده، لســلبيته أمام الأحداث الكبار المهدِّدة لحياة الأمة من حوله، إلى غير ذلك من الانتقادات الَّتي نجد أكثرها ـ عند التأمل ـ ترجع إلى انتقادات السابقِين نفسها، وإنْ لبست لبوس العصر.

هذا إلــى انتقادات «العلمانيِّيــن» الَّذين يكرهــون «الغزالي»؛ لأنَّهم يكرهون الدين نفسه.

وسنحاول أن نذكر هنا أبرز المآخذ الأساسية الَّتي عابها أهل عصرنا على «الإمام الغزالي»، وســنقتصر منها على ما له طابع عام، دون ما له انتســاب خاص إلى تيار معين، كالتيار المعادي للأشــعريَّة أو الصوفيَّة بوجه عام.

الغزالي والمصلحة العامَّة للمجتمع:

مما عابه المعاصرون على «الغزالي»: إغفال المصلحة العامَّة للمجتمع المسلم، وللأمة الإسلاميَّة، وفي هذا الشــأن وجَّه أستاذنا الدكتور محمَّد يوسف موسى رحمه الله تعالى إلى الغزالي، نقدًا عنيفًا في كتابه «فلسفة الأخلاق في الإســلام»، فنراه بعد أنْ فصَّل القول في مذهبه الأخلاقي، والفلسفة الَّتي يقوم عليها، والمصادر الَّتي استقى منها، وبيَّن رأيه في الفضيلة والسعادة، والطريق إليها، وانتهائه إلى تفضيل حياة الزهد، والخمول والجوع وترك السعي، واعتبار ذلك المثل الأعلى؛ يقول:

«هل وضع فيلســوفنا وهو يكتب مذهبه في الأخلاق الصالح العام للمسلمين كأمة لها حظ في الحياة، ومكانة يجب أنْ تحافظ عليها، وغاية جليلة تعمل على الوصول إليها»؟

QaradawiBooks.com

وبعد أنْ يبيِّن موقف الإسلام الَّذي يجمع بين الدُّنيا والآخرة، ويمزج بين الرُّوح والمادة، وينكر تحريم زينة الله والطيبات من الرزق، ويأمر بالمشي في مناكب الأرض، الَّتي جعلها الله لنا ذلولًا، كما يأمرنا أن نُعِدَّ لأعدائنا ما استطعنا من قوَّة، فهو لا يغلق ملكوت السماوات في وجوه الأغنياء، كما فعل عيسى عليه السلام، ولم يقل النبي ﷺ لأحد من أتباعه: بع مالك واتبعني. كما قال المسيح عليه السلام، بل قال لسعد: «**إنَّك أنْ تذرَ ورثتَك أغنياءَ خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفَّفون الناس**»[(١)].

بعد هذا يعود الدكتور «موسى» إلى سؤاله الأصلي.

وقبل أنْ يجيب الدكتور «يوسف موسى» على تساؤله، يذكر رأي «الغزالي» في الزهد والتوكل وأن من ملك لنفسه أكثر من قميص وسروال ومنديل، أو ابتغى لنفسه أكثر من حجرة، فقد خرج من صفوف الزاهدين[(٢)]!

وبعد أن حكى عن جوع السلف، ممَّن كان يطوي بطنه سبعة أيام، ومن يواصل إلى أربعين، وأن سهلًا التستري كان يفضل الصلاة قاعدًا من الجوع، على الصلاة قائمًا مع الشِّبَع[(٣)]!

ثم ما ذكره عن التوكل، وأنَّ أعلى مقاماته: مقام الخواصِّ ونظرائه ممَّن كان يدور في البوادي بغير زاد!

ثم يليه مقام من يلزم البيت أو المسجد، انتظارًا لما يبعثه الله من رزق[(٤)]!

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨).

(٢) انظر: الإحياء (٢٣١/٤).

(٣) المصدر السابق (٨٩/٣، ٩٠).

(٤) المصدر السابق (٢٦٨/٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بعد هذا يقول الدكتور رحمه الله: «ونعتقد أنه واضحٌ بعدَ هذا، أن «الغزالي» لم يكن وهو يكتب في مذهبه الأخلاقي يعنيه الصالح العام، كما كان يعنيه الصالح الخاصُّ للمتصوِّفين، وأن مذهبه ليس مذهبًا يقوم عليه الاجتماع، وتسعد به الأمة، فإنَّه جعل الغاية من الأخلاق «السعادة»، وحدَّدها وعيَّن وسائلها بما يجعلها «السعادة الشخصيَّة» لا العامَّة، فكان مذهبه بذلك «مذهبًا فرديًّا» لا اجتماعيًّا.

وقد كان حريًّا به وهو من الَّذين وصلوا لفهم الدين وأسراره: أنْ يجعل من الدين الَّذي أشرنا من قبل إلى بعض مزاياه ونظراته للحياة، عاملًا اجتماعيًّا يأخذ منه مذهبًا للأخلاق الاجتماعيَّة، يتميز بالنيل والصلاحية لبناء الأمم وسعادتها، كما فعل الشيخ «محمد عبده» في «رسالة التوحيد»؛ لأنَّ الإسلام جاء لسعادة المجتمع لا لسعادة فريق دون فريق.

إنَّ هؤلاء المتصوِّفة ومَنْ إليهم من الَّذين يسعَوْن وراء سعادتهم الخاصَّة قوم أنانيون، بل قوم جمعوا إلى الأنانية صفة أخرى، أنَّهم طلَوْها بطلاء من الدين يخدع الجهَّال، فيحسبون أنَّهم صفوة خلق الله.

وإنَّ أسعد أيام أمم الغرب الَّتي تتقاتل في سبيل استعمار الشرق، وخصوم الإسلام وأعدائه الَّذين يتربصون به الدوائر، لهو اليوم الَّذي يرَوْن فيه المسلمين آخذين ـ لا قدَّر الله تعالى ـ بمذهب «الغزالي»، فيجعلون الغاية الَّتي عيَّن عَيْن غايتهم، والمنهاج الَّذي رسم منهاجَهم، فيصيرون عدمًا، أو كالعدم في هذه الحياة الَّتي لا ترحم الضعيف، والتي تذكرنا بقول الشاعر:

تَعْدُو الذِّئَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَه وتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الْعَادِي[1]

(١) البيت للنابغة. انظر: قواعد الشعر لثعلب صـ ٧٥، تحقيق رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

على أنه من الحق للغزالي أنْ أشير إلى دفاع الأستاذ الكبير «يوسف كرم» في نقده عنه في هذه المسألة، مسألة الغاية القصوى للإنسان، بأنَّه ما دامت آخرة الإنسان روحية، فالدنيا تعتبر عدمًا أو كالعدم، والأمة الزاهدة هي الرابحة السعيدة، وأنَّه في هذا الدفاع يتمنَّى لو وُجِدت أمة تجمع على التزام حدود الله، وتذهب في سبيل الكمال، إلى حد إيثار العدالة على القوَّة، والإحسان على العدالة، فبهذا يكون أبناؤها ملائكة تمشي على الأرض، ويصلحون الأرض ومَنْ عليها!

وهناك دفاع آخر قدمه الأستاذ «طه عبد الباقي سرور» في كتيِّبه عن «الغزالي»[١].

إذ رأى أنَّ «الغزالي» لا يدعو النَّاس جميعًا لمثل هذا الزهد، أو لمثل ذاك التوكل، إنَّما يدعو إليه فئة خاصَّة من الناس، يكونون فيهم كالشامة، يهوِّنون عليهم أمر الدُّنيا وأعراضها وزخارفها، وإن لم يطلب من الجميع أنْ يسعَوْا سعيها، وإلا خربت الدنيا، وهي مزرعة الآخرة، ولله حكمة في بقائها وعمارتها.

ونقل الأستاذ «سرور» من كلام «الغزالي» في عدة مواطن من «الإحياء» ما يدلُّ على هذه الفكرة، وممَّا يؤيد هذه الفكرة اعتبار «الغزالي» الحرف والصناعات والعلوم الدنيويَّة مثل الطب والحساب، وكل ما به قوام الحياة من فروض الكفايات الَّتي تأثم الأمة بالتفريط فيها[٢].

ومهما يكن من دفاع هذا وذاك عن «الإمام الغزالي»، فالذي يوحي به مجموع كتب «الغزالي» الصوفيَّة وما فيها من نزعة شديدة إلى

(١) ظهر في سلسلة اقرأ، التي تصدرها دار المعارف، القاهرة.

(٢) انظر: الإحياء (١٦/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الزهد، وإن لم يكن بصورة مباشرة: أنَّ الإنسان المثالي عنده ـ وعند المتصوِّفة بشكل عام ـ ليس هو الإنسان الَّذي عرفه الصحابة رضوان الله عليهم، ممَّا فهموه من القرآن والسُّـنَّة والسـيرة، جامعًا بين الدُّنيا والآخرة، بين حظ نفسـه وحق نفسـه وحق ربه، وبيـن ترقية روحه وخدمة مجتمعه، وبين التمتع بالطيبات والقيام بشكر الله تعالى، بين العبادة لله والضرب في الأرض والانتشـار فيها والمشـي في مناكبها ابتغاء فضل الله، يعمل لدنياه كأنما يعيش أبـدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا.

فعلى قارئ «الغزالي» أنْ يسـتفيد ممَّا لديه من شحنة روحية عالية، تلين بها القلوب القاسية، وتجعل الآخرة دائمًا حاضرة، وهذا ما يحتاج إليه النَّاس في عصر المادِّيَّة الغالية، مع الحذر من المبالغات الَّتي تبعد بالمسلم عن منهج الوسطية المستقيم».

الغزالي وانتهاب أفكار الآخرين:

وعابوا عليه أنه يأخذ أفكار غيره من العلماء ولا ينسـبها إليهم، أو على حد تعبير أستاذنا د. «يوسف موسى»: ينتهبها! ويحكيها كأنها أفكاره وآراؤه دون أنْ يعزوها إلى أصحابها.

هذا مع أنه رحمه الله عاب ذلك أشد العيب في كتابه «الإحياء»، واعتبره لونًا من «السـرقة» المموَّهة بطلاء كاذب، وذلك في كتاب «ذم الغرور» من ربع المهلكات، عند حديثه عن المغترِّين من فرق أهل العلم، فجعل منهم من «لعله يحكي من الـكلام المزيف ما يريد تزييفـه فيعزيه إلى قائله، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه، ليظن أنه من كلامه، فينقله بعينه

QaradawiBooks.com

كالسارق له، أو يغيره أدنى تغيير، كالَّذي يسرق قميصًا فيتخذه قباء، حتَّى لا يُعرف أنه مسروق»[١]!

وقد لمست بنفسي كثيرًا من ذلك في «الإحياء» حيث ينقل من «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للإمام الراغب «الأصفهاني» كثيرًا من الأفكار، ولا يعزوها إلى مصدرها، ومثل ذلك من «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، ومن «الرعاية» للحارث المحاسبي، الَّذي قال عنه العلامة الشيخ محمَّد زاهد الكوثري: إن «الغزالي» تبطَّنه في «إحيائه»[٢]، وهذا أمر يلمسه كل من قرأ الكتابين، وبخاصة ربع «المهلكات» من «الإحياء»، فهل كان ذلك غفلة منه، أم لأنَّه قرأ هذه الأفكار، وتمثَّلها ولم يعد يذكر من أصحابها، أم كان طابع العصر يسمح بذلك ولا يحاسب عليه، ويعتبر هذه الأفكار ملكًا شائعًا؟

على أية حال، لقد كان الرجل في هضمه للثقافات والمعارف المتنوعة المصادر، المتعددة الألوان، أشبه بالنحلة الَّتي تأكل ـ بإيحاء ربها ـ من كل الثمرات، وتتغذى من مختلف الأزهار، في مختلف الزروع والأشجار، سالكة سبل ربها ذُلُلًا، ليخرج بعد ذلك من بطنها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وكذلك كان الغزالي.

---

(١) الإحياء (٣/٣٩٢).

(٢) نقله الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في مقدمة تحقيقه لرسالة المسترشدين للمحاسبي، ولكن مما يذكر للغزالي أنه اعترف بأخذه عنه في المنقذ، وقال عنه في الإحياء (٣/٢٦٤): المحاسبي حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال وأغوار العبادات.

QaradawiBooks.com

إنَّ كلَّ ما قرأه وحصَّله في مراحل عمره المختلفة، أصبح بمثابة اللَّبِنات وموادِّ البناء، الَّتي استخدمها في تكوين البناء الفِكْري المحكم الَّذي صمَّمه وأقامه بفكره ومعرفته.

الغزالي وتناقض الأفكار:

وعابوا على «الغزالي» كذلك ما يبدو من اضطراب وتناقض في أفكاره وتعارض في آرائه، فهو ينفي في كتاب ما يثبته في آخر، ويحُلُّ في موضع ويربط في آخر.

وهذا في الواقع ليس نقدًا جديدًا موجهًا إلى «الغزالي»، بل هذا ممَّا عابه عليه القدماء، عابه بذلك: «ابن طفيل»، و«ابن رشد»، و«ابن تيمية»، وغيرهم.

يذكر «ابن طفيل» أنه كفر الفلاسفة في «التهافت» لإنكارهم حشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصَّة، ثمَّ يقول في كتاب «الميزان»: إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفيَّة على القطع، ثمَّ قال في «المنقذ»: إن اعتقاده هو اعتقاد الصوفيَّة[1].

وقد أدى هذا ببعض دارسي «الغزالي» إلى القول بأن له مذهبين:

مذهب للعوام، وهو ما ضمنه بعض كتبه مثل «التهافت».

ومذهب للخواص، يتبع فيه الفلاسفة، كما في «معارج القدس» وغيرها، ذهب إلى ذلك الدكتور «سليمان» دنيا في كتابه «الحقيقة في نظر الغزالي».

(١) حي بن يقظان لابن طفيل صـ ٦٣، تحقيق أحمد أمين، نشر دار المعارف، مصر، ١٩٥٢م.

QaradawiBooks.com

وأنا أعيــذ «أبا حامد» أن يكون ذا وجهين، وأنْ يكفر الفلاســفة في الظاهر ويتبعهم في الباطن.

ولو جاز ذلك منه في أوائل حياته، أيام طلب الظهور والصيت، لم يجز أبدًا بعد أنْ جعل الدُّنيا وأهلها وراء ظهره، وأقبل بكنه همته على الله سبحانه.

وقد بيَّنتُ أنَّ كلامه عن اعتقاد الصوفيَّة في الجزاء الأخروي، لا يفهم منه ـ على القطع ـ ما فهمه «ابن طفيل».

وغاية ما يمكن قوله هنا: أنَّ الرجــل كان ذا نفْس قلِقة، وعقل ثائر، وكان فكره دائم الحركة، فكثر انتقاله من رأى إلى آخر: حتَّى ثبت على ما هو عليه.

وقد رأينا ما قاله عن الفلاسفة في «التهافت» يؤكده ما قاله عنهم في «المنقذ»، وهو مــن أواخر مصنفاته، كما أكد ذلــك في «الإحياء»، وفي «فيصل التفرقة».

ثم إنَّ هناك كتبًا تنســب إليه تتضمن آراء مناقضة لما قرَّره في كتبه المشهورة، وتلك الكتب لم يثبت صحة نسبتها إليه.

من ذلك كتاب «المضنون به على غير أهله»، وقد أنكر العلَّامة ابن الصلاح نسبته إليه، وقال: معاذ الله أن يكون له، وبين سبب كونه مختَلَقًا موضوعًا عليه[1].

قال العلَّامة «ابن السبكي»: «والأمر كما قال: وقد اشتمل «المضنون» على التصريح بقدم العالم ونفي العلم القديم بالجزئيَّات، ونفي الصفات،

(١) انظر: طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (٢٦٣/١)، تحقيق محيي الدين علي نجيب، نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

وكل واحدة من هذه يكفِّر «الغزالي» قائلها، هو وأهل السُّـنَّة أجمعون، فكيف يُتصوَّر أنه يقولها؟!»[١].

وكذلك قال «الأسنوي» في «طبقاته»: «وينسب إليه تصنيفان ليسا له ـ بل وضعا عليه، وهما: «السر المكتوم»، و«المضنون به على غير أهله»»[٢].

وقال «ابن رشد»: «لعلَّه لم يؤلفه»[٣].

ويبدو أنَّ هناك كتبًا دُسَّ فيها على «الغزالي» ما لم يقله، دسَّـها فيها أصحاب الأهواء، وأتباع المذاهب المنحرفة، اسـتغلالًا لاسـم الغزالي وشهرته، ليروِّجوا عن طريق كتبه باطلهم، أو ليشوِّشوا به على «الغزالي» ويشنِّعوا عليه.

ويظهر أنَّ هذا الدسَّ بدأ فـي حياة «الغزالي» كيدًا له، كما حكى هو نفسـه في إحدى رسـائله الفارسـية، وذلك بعد رجوعه إلى التدريس بالنِّظاميَّة، والتفاف الطلبة حوله، ومجيئهم إليه من كل صوب، وحسـد الحاسـدين له، وآفة العلمـاء الحسـد، وخصوصًا مـن المتعاصرين، وبالأخص إذا اختلفت مذاهبهم ومشاربهم.

فلنستمع إليه يحدثنا عن ذلك فيقول: «لما استُجيبت الدعوة، واستمرَّ عمل التدريس ناشـطًا، وأخذ طلبة العلم من أطراف العالم يفدون، هاج حسـد الحسَّـاد، ولم يجدوا أي طعن مقبـول، غير أنَّهم لبسـوا الحق بالباطل، وغيَّروا كلمات من كتاب: «المنقذ من الضلال» وكتاب «مشكاة

(١) طبقات الشافعية (٦/٢٥٧).
(٢) انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٦/١٩).
(٣) دراسات في تاريخ الفلسفة لعبده الشمالي صـ ٥١٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الأنــوار»[١] وأدخلوا فيها كلمات كفر، وأرســلوا إلــيَّ حتَّى أكتب على ظهرهما «خط الإجازة»، ولكن الله ﷻ قــد ألهمني بفضله وكرمه، حتَّى طالعت، ووقفتُ على تلبيسهم، واطلع رئيس خراسان على هذه الحالة، وأمر بحبس ذلك المزوِّر، وأخيرًا نفاه عن نيسابور، فذهب إلى المعسكر عند ملك الإسلام، وأطال لســان الطعن، وقد عُجِز عنه، ثمَّ أخذ تعليقًا صنفته في أيام الصغــر مكتوبًا على ظهره «المنخول من تعليق الأصول» وقد زاد عليه جماعة بحكم الحســد من قبل ثلاثين سنة بكلمات تطعن في الإمام أبي حنيفة»[٢].

فلا يؤمن أن يكون بعض الكتب قد دُسَّ فيها ـ بعد وفاته ـ عبارات تلزم الرجــل ما لم يلتزم، وبخاصــة الكتب غير المشــهورة، والله أعلم بحقيقة الحال!

الغزالي والغزو الصليبي للشرق الإسلامي:

وعابوا على الغزالي كذلك أن عصره شــهد كــوارث ضخمة في حياة الأمة الإسلاميَّة، لم يشــر الغزالي إليها، ولا أظهر اهتمامًا بها،

(١) نشر هذا الكتاب د. أبو العلا عفيفي، وأشار في مقدمة نشــره إلى صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي، ولكن د. محمد علي أبو ريان يذكر: أنَّ المقارنة النصية المباشــرة بين المشــكاة وإحياء علوم الدين في المواضع المتناظرة، تكشف عن عدم صحة نسبة المشكاة للغزالي، بل إنَّ الدراســة «الفيلولوجية» النقدية للمشــكاة قد أثبتت هذا الرأي انظــر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، هامش صـ ٤٩٢.
ولكن كلام الغزالي هنا يثبت صحة النسبة، فلعلَّ الكتاب دُسَّت فيه ـ بعد الغزالي ـ مقاطع من غير كلامه.

(٢) فضائل الأنام من رســائل حجة الإســلام صـ ٤٥، ترجمة د. نور الديــن آل علي، نقلًا عن الدراسة التي قدم بها الزميل الدكتور علي محيي الدين القرداغي تحقيقه للوسيط للغزالي (١٩٨/١، ١٩٩)، نشر دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

QaradawiBooks.com

مثل غزوة أهل الكفر للمسلمين في عقر دارهم، واحتلال الصليبيين لعدد من بلاد الإسلام، لا سيَّما بيت المقدس، الَّذي دخلوه غازين، وأسالوا فيه الدماء أنهارًا، وقتلوا من أهله نحو ستين ألفًا، وتفكُّك الأمة أمام هذه الغارات الوحشية.

فما لنا لم نسمع صوت الغزالي هنا، وهو صاحب الكلمة المسموعة، والصيت المدوِّي، والبيان المؤثِّر، والحجة البالغة، ما له لا يتحدَّث عن الجهاد؟ وما له لا يحرك الجماهير كما فعل من بعده شيخ الإسلام ابن تيمية؟ ما سر هذه السلبية؟

والحقُّ أنَّ هذا موقف محير من أبي حامد رحمه الله تعالى ومثله لا يجهل ما يجب أنْ يقال، وما يجب أن يُعمل في زمن الإغارة على أهل الإسلام، وقد سجَّل حكم الجهاد في مثل هذه الحالة، وأنَّه فرض عين في كتبه الفقهيَّة، فما له سكت هنا، هل غلب الغزالي الصوفي على الغزالي الفقيه؟

ربما يقال: إنَّ هذه الأحداث الكبار إنَّما برزت وتفاقمت في العالم الإسلامي في نفس الوقت الَّذي اتَّجه فيه الغزالي إلى حياة العزلة والتصوُّف سنة (٤٤٨هـ) وهجر الدُّنيا بما فيها من صراع البقاء أو صراع الفناء، فكان محور تفكيره حينذاك إنقاذ نفسه من النار ونقلها من المهلكات إلى المنجيات.

فقد غزا الصليبيون أنطاكية سنة (٤٩١هـ)، ثمَّ مَعَرَّة النُّعمان في الشهر الأخير من تلك السنة، حتَّى قالوا: إنَّهم قتلوا فيها مائة ألف، ثمَّ اجتاحوا البلاد كلها يقتلون ويدمرون، واقتحموا القدس سنة (٤٩٥هـ)، وذبحوا من ذبحوا ممَّا يذكره التاريخ ولا ينساه، وكان الغزالي لا يزال في عزلته، إذ

QaradawiBooks.com

لم يفارقها إلَّا في سنة (٤٩٩هـ). ولكنَّه بعد ترك العزلة والعودة إلى حياة الإفادة والتدريس والدعوة، لم يبدُ منه ما يدل علـى عنايته بهذا الأمر، الَّذي يتعلق بمصير الأمة، وسيادتها في أرضها، ممَّا جعل بعض الباحثين يقول: «إن الصوفيَّة ـ والغزالي منهم ـ وقفوا من الغارات الصليبية موقفًا سلبيًّا، لاعتقادهم أنَّها كانت عقابًا إلٰهيًّا للمسلمين على معاصيهم»[1]!

ولعلَّ عذر الإمام الجليل أنَّ شـغله الشـاغل كان الإصلاح من الداخل أولًا، وأنَّ الفسـاد الداخلي هو الَّذي يمهِّد للغـزو الخارجي، كما تدلُّ على ذلك أوائل سورة الإسراء، فإنَّ بني إسرائيل كلما فسدوا وأفسدوا في الأرض، سلَّط عليهم عدوَّهم، وكلما أحسنوا وأصلحوا رُدَّت لهم الكرة عليهم.

لقـد وجَّه أكبر همِّـه إلى إصلاح الفـرد، الَّذي هو نـواة المجتمع، وإصلاح الفـرد إنَّما يكون بإصـلاح قلبه وفكره، وبذلـك يصلح عمله وسـلوكه، وتصلح حياته كلها، وهذا هو أساس التغيير الاجتماعي، وهو ما أرشد إليه القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ويدخل في ذلك إصلاح الحُكَّام بحسـن توجيههم والنصيحة لهم، والله أعلم بحقيقة عذره.

الغزالي ومسؤوليَّة التخلف العلمي والحضاري للأمة:

ولقد ذهب بعض المستشرقين وتبعهم بعض المعاصرين من العرب إلى أنَّ الغزالي يحمل وحده تبعة هدم الفلسـفة، والتفكير العقلي الحر، وانتصار المدرسـة التقليديَّة على المدرسـة العقليَّة، بـل حمَّلوه ـ تبعًا لذلك ـ مسؤوليَّة انهيار صرح العلوم والحضارة الإسلاميَّة برُمَّتها!

(١) مقال د. عمر فروخ في مهرجان الغزالي، نقلًا عن: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية للدكتور محمد رشاد سالم صـ ١٨، نشر دار القلم، الكويت، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

QaradawiBooks.com

وآخر ما قرأته في ذلك: كتاب صدر في سلسلة «عالم المعرفة» بدولة الكويت الشقيقة عن «العرب وتحديات التكنولوجيا»، وفيه يحمِّل المؤلف «أنطونيس كرم» ومن نقل عنهم من المعاصرين الغزاليَّ والمدرسةَ الَّتي يمثلها نتيجة تخلف الأمة وسقوط حضارتها! وهذه ـ لا ريب ـ دعاوٍ عريضة، لا يصعب الرد عليها لأي دارس للحاضرة الإسلاميَّة وتياراتها ومدارسها، وردُّنا على هذه الدعوى من وجوه:

١ ـ إن فلسفة يستطيع فرد واحد من النَّاس ـ مهما علا كعبه في المقدرة العقليَّة والعلميَّة ـ أنْ يأتي على بنيانها من القواعد بكتاب يؤلِّفه أو كتب؛ لهي فلسفة جديرة أنْ تختفي من عالم الفكر، بل لا تستحق أنْ تسمَّى فلسفة.

إنَّ الحقائق أعمق جذورًا في الوجود من أنْ تقتلع بهذه السهولة الَّتي يتصوَّرون أو يصوِّرون، إنَّما الَّذي يقتلع وينهار بهذه السهولة هو الأباطيل الَّتي قد تبدو في صورة الحقائق، أو الأوهام الَّتي تلبس ثوب اليقينيات، وهي من اليقين عارية، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

٢ ـ إنَّ الفلسفة لم تمت تمامًا بحملة الغزالي عليها، بل خفَت صوتُها، وتقلَّص سلطانها، وفقدت ما كان لها من هَيْل وهيلمان، وهذا ما كان يريده الغزالي، ولكن هذا لم يمنع من ظهور فلاسفة كبار، وخصوصًا في المغرب، من أمثال ابن باجه وابن طفيل وابن رشد، وفي هذا يقول «دي بور» الهولندي:

«كثيرًا ما يقال: إنَّ الغزالي قضى على الفلسفة في الشرق، ولم تقُم لها بعده قائمة، ولكن هذا زعم خاطئ، لا يدلُّ على علم بالتاريخ،

QaradawiBooks.com

ولا فهم لحقائق الأمور، فقد بلغ عدد أساتذة الفلسفة وطلابها بعد عصر الغزالي مئاتٍ، بل ألوفًا»[١].

وحسبنا أنَّ أشهر فلاسفة الإسلام على الإطلاق، وأكبر شارح لأرسطو، والَّذي يعتبره عدد من مؤرخي الفكر قمة التفكير الإسلامي، وهو أبو الوليد بن رشد (ت: ٥٩٥هـ) ظهر بعد الغزالي، بل كان موقف الغزالي أكبر حافز له على الإنتاج، والرد والشرح، كما أشار إلى ذلك الدكتور إبراهيم مدكور.

٣ ـ إنَّ الغزالي لم يهاجم الفلسفة من حيث هي تفكير عقلي حر، يبحث عن حقائق الأشياء، مستقلًّا لا مقلِّدًا، وأصيلًا لا تابعًا، إنَّما هاجم الفلسفة الَّتي انتسبت إلى الإسلام، وكُتِبت بلغة العرب، وهي لا تمثِّل الإسلام ولا العرب في حقيقتها، وما هي إلَّا مركَّب غير متجانس من الفلسفة المشَّائيَّة الأرسطيَّة مخلوطة بالأفلاطونيَّة الحديثة، يراد إخضاع التعاليم الدينيَّة الإسلاميَّة لها، وهي متناقضة في نفسها، وغير مؤسَّسة على علم يقيني.

والذي صنعه الغزالي إنَّما هو نقض التبعية والعبودية الفِكْريَّة لهذه الفلسفة الغازية، ووضْعها تحت مجهر النقد، وعلى مشرحة التحليل، فالإنصاف يقول: «إنَّ الغزالي قد أعاد إلى الإنسان المسلم الثقة بنفسه ليفكر برأسه لنفسه، بدل أنْ يفكر له أرسطو أو أفلوطين أو غيرهما».

والغزالي حين أظهر عجز الفلسفة، وتهافت الفلاسفة، لم يُقم ذلك على أساس ديني، بل على أساس عقلي محض، فهو يقارع الدليل بالدليل، ويدحض الشبهة بالحجة، ويهدم الظن باليقين، يقاوم المنطق بمنطق أقوى،

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور صـ ٣٥٧.

QaradawiBooks.com

لا تهولــه العبارات الفخمــة، ولا الأســماء الطنَّانة، فهو حارب الفلســفة بالفلسفة، وهو في نقضه للفلسفة فيلسوف كبير، وإن لم يعتبر نفسه كذلك.

٤ ـ إنَّ الغزالــي لــم يهاجم كل شُــعَب الفلســفة، «فقد اســتثنى الرياضيَّات والطبيعيَّات والخُلُقيات والسياســيات منهــا»، إنَّما هاجم الفلسفة الميتافيزيقيَّة، أو بتعبير أستاذنا المرحوم الدكتور محمَّد البهي: «الجانب الإلٰهي» من الفكر الفلسفي، وهو الجانب الَّذي يعجز العقل أنْ يقول فيه كلمة فاصلــة؛ لأنَّه فوق قدرته، وفوقــه اختصاصه، وكل ما يملكه العقل هنا قياس الشاهد على الغائب، أو المحدود على غير المحدود، أو المخلــوق على الخالق، وهو قيــاس ـ بالمنطق العقلي نفســه ـ مرفوض؛ لأنَّه قياس مع الفــارق، وأي فارق أكبــر ممَّا بين المخلوق والخالق؟

وقد شارك الغزالي في هذا كثير من كبار الفلسفة في العصر الحديث، مثل: «كانت» الَّذي شــبَّه عبارات الفلسفة «الميتافيزيقيَّة» بأنَّها «ورق نقد بدون ضمان»، كما نقــل عنه الدكتــور/ البهي في كتابــه القيم «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي».

ومثل فيلسوف المدرســة الوضعية «أوجســت كونت» الَّذي يعتبره الغربيون «أبا علم الاجتماع» الَّذي يعتبــر «الميتافيزيقيَّة» مرحلة انتهت بظهور الاتِّجاه العلمي الوضعي التجريبي.

وقد رأينا مفكِّرًا عربيًّا معاصرًا مثل د. زكي نجيب محمود، يشن حملة على التفكير التجريدي فيما وراء المادة، ويسمِّيه «خرافة الميتافيزيقا»[1].

(١) وقد ردَّ عليه شيخنا الدكتور محمد البهي في كتابه القيم: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي صـ ٢٨٥ ـ ٢٩٦، ط ٢، ١٩٦٠م.

QaradawiBooks.com

فليس «الغزالي» بِدَعًا في الأولين ولا الآخرين، إذا هو هاجم اللون من الفلسفة، الَّتي لا تُنهض بانتشارها دنيا، ولا يستقيم عليها دين!

٥ ـ إنَّ نقد «الغزالي» للفلسفة، وحملته عليها، وانتصاره للدين ولعقائد الإسلام، لا يعني أنه أصبح خصمًا للعقل، أو أنه أدار ظهره للفكر الحر. فهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على سوء فهم لدين الإسلام ولموقف «الغزالي».

فأما سوء فهمهم للإسلام، فلتوهمهم أنَّ الدين ـ كل دين ـ لا يرحب بإعمال العقل، ويقيسون الإسلام في ذلك على النصرانيَّة الَّتي شعارها: اعتقد وأنت أعمى! والتي تؤمن بالتعارض بين العقل والدين، حتَّى قال القديس الفيلسوف «أوغسطين»: أومن بهذا؛ لأنَّه محال! على حين ينكر الإسلام التقليد، ويدعو إلى النظر، ويعتبر التفكير عبادة، والعلم فريضة، ويرفض اتباع الظنون والأهواء، ويقول لأصحاب العقائد المختلفة: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، النمل: ١٦٤]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وأما سوء فهمهم للغزالي، فإنَّ الرجل لم يتنكَّر للعقل ولا للنظر، كيف وهو الَّذي أعلن أنَّ الشك هو أوَّل مراتب اليقين، وأنَّ مطلوبه الَّذي يسعى وراءه هو العلم اليقيني، وقد حدَّده بأنَّه «الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتَّسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أنْ يكون مقارنًا لليقين، مقارنة لو تحدَّى بإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبًا، والعصا ثعبانًا، لم يورث ذلك شكًّا وإنكارًا. إنَّ كل علم ممَّا لا أعلمه على هذا الوجه،

QaradawiBooks.com

ولا أتيقَّنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني»[١].

وقال في أواخر «الميزان»: «من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»[٢]!

كما ذكر في غير موضع من كتبه أنَّ العقل لا يغني عن النقل، وقد يعبَّر عنه بالسمع أو الشرع، والنقل لا يغني عن العقل. يقول في كتابه «معارج القدس»:

«ويرى أنَّ العقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسٌّ»[٣].

ويقول في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد»:

«فالمعرض عن العقل مكتفيًا بأنوار القرآن مثل المتعرض لنور الشمس مغمضًا الأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور»[٤].

ويقرر في «الإحياء» ما ذكرناه من قبل أن لا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكُلِّيَّة جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسُّنَّة مغرور، فإيَّاك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعًا بين الأصلين، فإنَّ العلوم العقليَّة كالأغذية، والعلوم الشرعيَّة كالأدوية. وظن من يظن أنَّ العلوم

(١) المنقذ من الضلال صـ ٨٩، ٩٠.
(٢) الميزان صـ ٤٠٩.
(٣) معارج القدس صـ ٥٧.
(٤) معارج القدس صـ ١٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

العقليَّة مناقضة للعلوم الشـرعيَّة، وأنَّ الجمع بينهما غير ممكن، هو ظنٌّ صادر عن عمى في عين البصيرة، نعوذ بالله منه»[١].

٦ ـ إنَّ «الغزالي» ـ وإنْ دعا إلى التصوُّف والزهد والتوكل ـ لم يدعُ إلى إهمال شؤون الدُّنيا من زراعة وصناعة وطب وغيرها، بل نراه يعتبر ذلك من الفروض الكفائية على الأمة فـي مجموعها، فإذا لم يتوفَّر فيها العدد الكافي لتلبية حاجاتها من تلك العلوم والصناعات فهي آثمة.

يقول في كتاب «العلم» مـن «الإحياء» في بيـان «العلم الَّذي هو فرض كفاية»:

«اعلم أنَّ الفرض لا يتميَّز عن غيره إلَّا بذكر أقسـام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الَّذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعني بالشـرعيَّة ما اسـتفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسـلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة.

فالعلوم الَّتي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبـط به مصالح أمور الدُّنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسـم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة، أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يُستغنى عنه في قـوام أمور الدُّنيـا كالطب، إذ هو ضـروري في حاجة بقـاء الأبدان، وكالحسـاب، فإنَّه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم الَّتي لو خلا البلد عمَّن يقوم بها حرج أهل

(١) الإحياء (١٧/٣).

QaradawiBooks.com

البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يُتعجَّب من قولنا: إنَّ الطب والحساب من فروض الكفايات، فإنَّ أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنَّه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم، وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإنَّ الَّذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرُّض للهلاك بإهماله»[١].

وقد رأيناه ينكر على المشتغلين بالفقه في عصره إهمالهم لبعض فروض الكفايات الَّتي لا تقوم مصالح الأمة إلَّا بها، مثل الطب، وقال: «فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلَّا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثمَّ لا نرى أحدًا يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه، لا سيَّما الخلافيَّات والجدليَّات، والبلد مشحون من الفقهاء ممَّن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليت شِعْري كيف يرخِّص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟!»[٢].

٧ ـ إنَّ «تبسيط» القضايا الكبيرة المعقدة، الَّتي تتكاثر أسبابها، وتتداخل عللها، وتتشابك أطرافها، ليس من العلميَّة ولا من الموضوعيَّة في شيء.

فقضية مثل أفول نجم الحضارة الإسلاميَّة، وانحطاط الأمة الإسلاميَّة وانسحابها من المقدِّمة إلى المؤخِّرة، وغلبة الجمود والتقليد على الإبداع

(١) الإحياء (١٦/١).
(٢) الإحياء (٢١/١).

QaradawiBooks.com

والاجتهاد، مثل هذه القضية الضخمة المعقَّدة لا ترجع إلى سبب واحد، ولا إلى عصر واحد، بله أنْ ترجع إلى رجل واحد.

إنَّ لهذا التخلف والانسحاب والجمود أسبابًا عدة، منها السياسي، ومنها الاجتماعي، ومنها الأخلاقي، ومنها الثقافي.

وهذه الأسباب لم تنشأ دفعة واحدة، ولا في وقت واحد، بل إنَّها تسري في كيان الأمم كما يسري الداء في أجسام الأفراد، يبدأ صغيرًا، ثمَّ يكبر، ضعيفًا ثمَّ يقوى، محدودًا ثمَّ ينتشر، خفيًّا ثمَّ يظهر، ثمَّ إنَّ الجسم إذا أصابه مرض ولم يجد من يعالجه أخذت تضعف مقاومته، فتتسلَّل إليه الأدواء الأخرى، داء بعد آخر، حتَّى تحطِّمه في النهاية، كذلك الأمم والحضارات.

ولو أردنا تعليلًا واحدًا يجمع كل العلل في علة واحدة لم نجد أفضل من قول العزيز الحكيم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

لقد غيرت الأمة ما بأنفسها ـ من أفكار ومعتقدات وقيم وفضائل ـ فغير الله ما بها من نعمةٍ وتقدُّم وانتصارٍ وقوَّة، سُنَّة الله في خلقه ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

كلمة أخيرة نقولها هنا للباكين على الفلسفة، والمتحاملين على «الغزالي»:

إن الفلسفة وحدها لا تحيي المجتمعات، ولا تنهض بالأمم، إنَّما الحياة والنهوض والتقدم الحقيقي بالإيمان والأخلاق والعلم، وطريقها ـ بالنسبة لأمتنا ـ دعوة محمَّد ﷺ لا فلسفة أرسطو.

QaradawiBooks.com

إنَّ الفلسفة قد ازدهرت في الأندلس بعد «الغزالي»، وظهر هناك أشهر الفلاسفة على الإطلاق: ابن رشد، ومع هذا لم تتقدَّم الأندلس، بل لم تبقَ! بل سقطت وسقطت معها الحضارة الإسلاميَّة هناك، لأسباب كثيرة يعرفها دارسو التاريخ، والعالِمون بسرِّ تقدُّم الأمم وتخلفها، وعلة قيام الدول وسقوطها.

إنَّ المسلمين لا يتقدَّمون إذا أصبحوا «أرسطيِّين» أو «فارابيِّين» أو «سينويِّين»، وإنَّما يتقدمون ويصلحون وينتصرون إذا أصبحوا «محمديِّين» «قرآنيِّين»، يوقنون من دينهم أنَّ طلب العلم فريضة، وأنَّ إتقان العمل عبادة، وأنَّ عمارة الأرض جهاد، وأنَّ الاتِّحاد على الخير قُربة، وأنَّ التعاون على البر والتقوى واجب، وأنَّ إتقان ما استطاعوا من قوَّةٍ جزءٌ من الدِّين، وأنَّ الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها.

بهذا يتقدَّمون ويتفوَّقون وينتصرون.

هذا ما وُجِّه إليه من مآخذ، وما عابه عليه الناقدون من القدماء والمحْدَثين، ممَّا قد يُقبل بإطلاق، أو يُردُّ بإطلاق، أو يقبل بعضه ويردُّ بعضه.

وحسبه أنه كان صادقًا مع الله، مخلصًا في تحرِّي الحق، متجرِّدًا لنصرة الدين.

نحسبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكِّي على الله أحدًا، «**وإنما لكلِّ امرئ ما نوى**»[1].

رحم الله الإمام «أبا حامد الغزالي»، فقد كان عملاقًا من عمالقة الفكر، وإمامًا من أئمَّة الدين، ورائدًا من رُوَّاد البحث عن الحقيقة واليقين.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الفهارس العامة

- فهـــرس الآيات القرآنيـــة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾	٣٢	١٩
﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾	١١١	١٥٠
سورة الأنعام		
﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾	١٤٨	١٥٠
﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾	١٦٢، ١٦٣	٩٤
سورة الأعراف		
﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾	٤٥	٢٩
﴿أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾	١١٧	١١٦
سورة الأنفال		
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾	٥٣	١٥٤
سورة يوسف		
﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾	٢	١٢٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرعد		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾	١١	١٤٦
﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٧	١٤٧
سورة إبراهيم		
﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾	٥٢	١٢٢
سورة الحجر		
﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾	٢٩	٩٧
سورة طه		
﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾	٢٤	١١٦
سورة النور		
﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾	٣٩	٩٤
سورة الفرقان		
﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾	١	١٢٢
سورة النمل		
﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾	١٦٤	١٥٠
سورة الروم		
﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾	٣٢	٩
سورة الأحزاب		
﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾	٣٩	٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فاطر		
﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾	٤٣	١٥٤
سورة ص		
﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾	٧٢	٩٧
سورة القمر		
﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾	١٧	١٢٢
سورة النازعات		
﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾	١٧	١١٦

❊ ❊ ❊

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

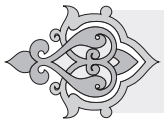

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

غير مرخصة للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أُمِرْتُ أن أقاتلَ النَّاس حتَّى يقولوا: لا إلٰه إلَّا الله محمَّد رسول الله.	٦٧
أمَّك قال: ثمَّ من؟ قال: أمَّك قال: ثمَّ من؟ قال: أمك قال: ثمَّ من؟	٨٠، ٨١
إنَّ اللهَ خلق آدمَ على صُورته	٩٧
إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كُلِّ مائة سنة مَنْ يُجدِّد لها دِينها	٥، ٢٧
إنَّك أنْ تذرَ ورثتَك أغنياءَ خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفَّفون الناس	١٣٦
ت	
تسحَّروا، فإنَّ في السحور بركة	١١٦
م	
ما تقرَّب المتقرِّبون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم	٨٠
مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا	١٣٠
ن	
نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال	١٠٨
و	
وإنما لكلِّ امرئ ما نوى	١٥٥

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

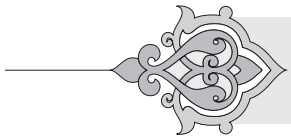

فهرس الموضوعات

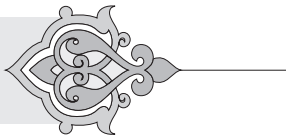

❖ **من الدستور الإلٰهي للبشرية** ٤

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥

• **مقدمة الطبعة الثالثة** ٧

• **مقدّمة** ١٥

❖ **الغزالي حُجَّة الإسلام** ٢١

الغزالي موسوعة عصره ٢٤

الغزالي حُجَّة الإسلامي ومُجدِّد المائة الخامسة ٢٧

دور الغزالي في نقض الغزو الفلسفي والباطني ٢٨

الرجل الَّذي أعدَّه القدر لمصارعة الفلاسفة ٣٠

نقض الفلسفة لا يعني التنكُّر للعقل ٤٢

موقف الغزالي بين العقل والنقل ٤٣

الغزالي الفيلسوف ٥٢

الغزالي والباطنيَّة ٥٥

الغزالي يدعو إلى تحرير الفكر من العصبيَّة والتقليد ٦٠

الغزالي يقاوم موجةَ الغُلُوِّ في التكفير ٦٦

QaradawiBooks.com

رسالة الغزالي في تجديد الدين وإحيائه ٧١
الغزالي ينقد المجتمع ويكشف التديُّن المغشوش ٧٤
نقد العلماء ٧٥
نماذج رائعة من نقد الغزالي للتديُّن المغلوط ٧٩
نموذج من الإخلال بالترتيب الشرعي للأعمال ٧٩
نموذج من إنفاق الأموال في غير ما هو أولى بها ٨٢
الغزالي ينقد سلاطين عصره ويحذِّر منهم ٨٤
الغزالي يواجه الحكَّام بقول الحق ٨٩
تأثير الغزالي في محيط الأمة الإسلاميَّة ٩١
تأثير الغزالي خارج العالم الإسلامي ١٠٠

❖ **وقفة مع الناقدين للغزالي ١٠٢**
الناقدون للغزالي من المتقدِّمين ١٠٢
• نقد الطُّرْطُوشي ١٠٣
• نقد المازري ١٠٤
• نقد ابن الصلاح ١٠٦
• نقد ابن الجوزي ١٠٧
ومأخذه الأساسي على «الإحياء» أمران ١٠٧
نقد ابن تيمية ١٠٩
تعقيب وتقويم ١١١
الغزالي والتصوُّف ١١٢
الغزالي وإنكار البعث الجسماني ١٢٣
الغزالي وعلم الحديث ١٢٨

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الناقدون للغزالي من المعاصرين ١٣٤
الغزالي والمصلحة العامَّة للمجتمع ١٣٥
الغزالي وانتهاب أفكار الآخرين ١٣٩
الغزالي وتناقض الأفكار ١٤١
الغزالي والغزو الصليبي للشرق الإسلامي ١٤٤
الغزالي ومسؤوليَّة التخلف العلمي والحضاري للأمة ١٤٦

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة ١٥٩**
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ١٦٣**
- **فهرس الموضوعات ١٦٥**

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس كتب المجلد

١٣٤ ـ تاريخنا المفترى عليه ٥

١٣٥ ـ الجويني إمام الحرمين بين المؤرخين: الذهبي والسبكي ٣٨٧

١٣٦ ـ الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ٤٥٥

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية